الفصل الثالث

لكى نكون معاصرين حقّاً

- ماذا تعنى المعاصرة ؟
- ضرورة معرفة العصر .
- العلم والتكنولوچيا .
- النظرة المستقبلية .
- أصناف الناس أمام الماضى والمستقبل .
- دعوى التصادم بين التفكير المستقبلى والتفكير الدينى .
- التعلق بالنموذج النبوى والصحابى .
- حاجة البَشر إلى نموذج .

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

ماذا تعنى المعاصرة ؟

يراد بالمعاصرة : أن يعيش الإنسان فى عصره وزمانه ، فى أفكاره وقيمه وسلوكياته ، فى انتصاراته وهزائمه ، فى معمعة أحداثه ، ومع أهله الأحياء المتحركين ، يفكر كما يفكرون ، ويعمل كما يعملون . لا يعيش فى عصر مضى بما يحمل من تصورات وعقائد ، ومن قيم ومفاهيم ، ومن أخلاق وتقاليد ، ومن شعائر وشرائع ، قد تكون صالحة للعصر وقد لا تكون .

جوهر المعاصرة - إذن - هو معايشة الأحياء لا الأموات ، والواقع الماثل لا الماضى الزائل . ولهذا مظاهره ودلائله ، التى تقتضيها المعاصرة .

وهذا الإجمال له تفصيل ، نبين عنه فى هذا الفصل .

١ - ضرورة معرفة العصر :

أول دلائل « المعاصرة » أو مقوِّماتها : أن نعرف « العصر » الذى نعيش فيه معرفة دقيقة وصادقة ، فإن الجهل بالعصر ، أو معرفته على غير حقيقته يفضى إلى عواقب وخيمة ، كالطبيب الذى يصف دواءً جيداً ، ولكنه قد يقتل مريضه أو يضاعف عليه سقمه ، إذ لم « يُشخِّص » داءه تشخيصاً دقيقاً ، أى لم يعرفه كما ينبغى .

إن بعض الكُتَّاب اللامعين فى عالَمنا العربى والإسلامى ، يتحدثون عن التفكير المادى وكأنهم فى القرن الثامن عشر ، مغفلاً الاتجاهات الإيمانية التى برزت لدى الكثيرين من علماء ومفكرى القرن العشرين [١] .

---

(١) انظر فى ذلك كتاب الأستاذ العقاد « عقائد المفكرين فى القرن العشرين » ، وكتاب « الله يتجلى فى عصر العلم » بأقلام ثلاثين عالِماً عصريّاً ، كتب كل منهم مقالاً : كيف اهتدى إلى الله عن طريق تخصصه ، ترجمة الدكتور الدمرداش سرحان ، ونشرته دار إحياء الكتب العربية ، بالتعاون مع مؤسسة فرانكلين . وانظر كذلك : =

ومنهم مَن لا يزال يتشبث بالماركسية وقد سقطت قلاعها العملية ، وحتمياتها النظرية ، فى مسقط رأسها ، وديار مجدها .

ومنهم مَن لا يبرح ينادى بالقومية ، وقد ذهبت ريحها منذ زمن بعيد ، وبات الناس يبحثون عن تكتلات أكبر وأرحب ، تحقق مصالحهم ، وتدرأ أخطار المنافسين عنهم .

ومنهم . . ومنهم . .

ولقد قال المستشار طارق البشرى فى حديثه عن « الإسلام والعصر » : إن المشكلة ليست فى جهلنا بالإسلام ، بل المشكلة فى جهلنا بالعصر !

وهو يوجه كلامه إلى العلمانيين ودعاة التغريب والتحديث ، فهو يعيب عليهم عدم معرفتهم بالعصر الذى يتباهون بالانتماء إليه ، أكثر مما يعيب عليهم عدم معرفتهم بالإسلام ، فهذا مفروغ منه ، وهم لا يدّعونه لأنفسهم .

وإذا كان من دعاة التحديث مَن يجهل العصر ، فإن فى دعاة الإسلام مَن هو أكثر جهلاً به ، لأنه يعيش فى الماضى وحده ، ويسكن فى صومعة التراث ، وقد أغلق عليه بابها ، فلا يكاد يرى أو يسمع أو يحسّ شيئاً مما حوله . ويا ليته يعيش فى عصور التألق والازدهار . بل كثيراً ما يعيش فى عصور التخلف والتراجع . فهو يفكر بعقولهم ، ويتحدث بلغتهم ، ويحيا فى مشكلاتهم ، ويجيب عن أسئلتهم ؛ فهو حى يعايش الأموات ، أكثر مما يعايش الأحياء .

وربما اعتبر بعضهم موقفه هذا الشخصى معبِّراً عن موقف الإسلام ، وهذا هو الخطأ الشنيع ، سواء من الشخص أو ممن يحلل موقفه .

= كتاب « العلم يدعو إلى الإيمان » تأليف « أ . كريسى موريسون » رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك ، ترجمة د . محمود صالح الفلكى ، وتقديم د . أحمد زكى ، والشيخ أحمد حسن الباقورى .

فالإسلام ينكر بشدة علي الذين يجمدون على الماضى وحده ، متبعين للآباء والأجداد ، وإن كانوا على باطل ، ومن عباراته القارعة لهم : ﴿ أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ (١) ، ﴿ أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴾ (٣) .

وينكر الإسلام على الذين يجترّون الذكريات الأليمة ، ويعيشون فى دوّامتها الحزينة ، فتنغص عليهم حياتهم ، دون أن يصنعوا شيئاً لمستقبلهم . وفى ذلك يقول القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ (٤) .

وفى مثل ذلك يقول الرسول الكريم : [احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، ولا تقل : لو أنى فعلت كذا لكان كذا ، بل قل : قدَّر الله وما شاء فعل ، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان] (٥) .

والمراد بـ (لو) هنا (لو) المتمنية المتحسِّرة ، وهى التى يقول فيها الشاعر :

ليت شعرى ، وأين منى (ليتٌ) إنَّ (ليْتاً) وإنَّ (لوّا) عنـــاء !

ويقول الآخر :

وليس براجع مـا فـات منـى بـ (لَهْفَ) ولا بـ (ليتَ) ولا (لَوَ انى) !

---

(١) البقرة : ١٧٠ (٢) المائدة : ١٠٤

(٣) الزخرف : ٢٤ (٤) آل عمران : ١٥٦

(٥) رواه مسلم فى كتاب « القدر » عن أبى هريرة ، حديث رقم (٢٦٦٤) ، باب : فى الأمر بالقوة وترك العجز ، والاستعانة بالله .

وقال بعض السَلَف : « الاشتغال بوقت ماضٍ تضييع وقت ثانٍ » .

المطلوب - إذن - أن يعيش الإنسان المؤمن القوى فى حاضره ، منطلقاً إلى مستقبله ، ولكى يحسن العيشة فى حاضره وزمانه ، وبعبارة أخرى : عصره ، ينبغى أن يعرفه ، حتى يتعامل معه على بصيرة .

وفى هذا ورد حديث أخرجه ابن حبان عن أبى ذر ، وفيه : [ينبغى للعاقل أن يكون عارفاً بزمانه ، حافظاً للسانه ، مقبلاً على شأنه] (١) ، ومن الكلمات المأثورة : « رحم الله امرءاً عرف زمانه ، واستقامت طريقته » (٢) .

وهذه المعرفة قد تكون مطلوبة طلب استحباب ، أو طلب وجوب ، فإذا كانت هذه المعرفة وسيلة لازمة لأداء واجب ، كانت هى واجبة كذلك . وفقاً للقاعدة الفقهية الشهيرة : « ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب » .

خذ مثلاً : الفقيه والمربِّى والداعية ، لا يستطيع أحدهم أن يصل إلى الصواب والرشد فى مجاله إذا كان يجهل عصره ، ويخاطب أهله بلغة عصر آخر ، فلا مراء أنهم لن يفهموا عنه . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (٣) ، يُفهم منه أنه كما يجب على صاحب الرسالة أن يتحدث بلسان قومه حتى يُفهمهم ويُبيِّن لهم ، يجب عليه أن يتحدث بلسان عصره ، حتى يُفْهِمَ أهله ويُبيِّن لهم ، وإلا لم تقم عليهم حُجَّة .

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه - الجزء الثانى ، حديث رقم (٣٦١) ، طبع الرسالة - عن أبى ذر أن هذا مما كان فى صحف إبراهيم ، وإسناده ضعيف جداً ، وحسبه أن يكون من كلام بعض السَلَف .

(٢) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير مرفوعاً عن ابن عباس ، وفيه راوٍ متهم ، وحسبه أن يكون من كلام ابن عباس . انظر : الحديث رقم (٤٤٤٠) من فيض القدير للمناوى .

(٣) إبراهيم : ٤

ولقد قرر فقهاؤنا المحققون : أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان ، والعُرْف والحال [١] ، فاعترفوا بأثر التغير الزمانى ، اعترافهم بأثر التغير المكانى ، بل كثيراً ما قدَّموا تغير الزمان على سائر التغيرات .

حتى إن « مجلة الأحكام العدلية » الشهيرة نصّت فى إحدى موادّها على هذه القاعدة فقالت : « لا يُنكَر تغير الأحكام بتغير الزمان » [٢] .

ولهذا تغيَّرت بعض الفتاوى فى عصر الصحابة عما كان عليه الحال فى عصر النبوة ، كما فى قضية جمع المصحف ، وجلد الشارب فى عهد أبى بكر ، وقضية قسمة الأرض المفتوحة ، وجلد شارب الخمر ثمانين فى عهد عمر ، وقضية جمع الناس على مصحف واحد فى عهد عثمان ، والتقاط الإبل الضالة فى عهده ، وقضية تضمين الصنّاع فى عهد علىّ وقوله : « لا يصلح الناس إلا ذاك » .

وقد اختلفت الفتاوى فى عصر التابعين عن عصر الصحابة .

واختلفت فتاوى عصر الأئمة المتبوعين عن عصر شيوخهم من التابعين وأتباعهم .

واختلفت فتاوى أصحاب الأئمة وتلاميذهم عن فتاوى شيوخهم ، وأئمتهم ، لاختلاف العصر ، رغم قُرْب العهد . وكثيراً ما عبَّروا عن الخلاف

---

(١) انظر كلام ابن القيم فى أول الجزء الثالث من « إعلام الموقعين » .

(٢) انظر المادة (٣٩) من مجلة الأحكام وشرحها للأستاذ على حيدر فى « درر الحكام شرح مجلة الأحكام » : ١/ ٤٣ ، وانظر : تعليقنا عليها فى كتابنا « شريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان » ص ١٣٢ ، ١٣٣

بين أبى حنيفة وصاحبيه الشهيرين أبى يوسف ومحمد بقولهم : إنه ليس اختلاف حُجَّة وبرهان بل هو اختلاف عصر وزمان ؟ (١) .

* *

● معرفة الواقع من تمام معرفة العصر :

ومن تمام معرفة العصر : معرفة الواقع المعيش ، الواقع المحلى (الوطنى) ، والواقع الإقليمى (العربى) ، والواقع الإسلامى ، والواقع العالَمى .

وهذه المعرفة لازمة لكل مَن يريد تقويم هذا الواقع ، أو إصدار حكم له أو عليه ، أو محاولة تغييره .

وقد ذكر علماؤنا أن من واجب الفقيه أو المفتى أن يعرف الواقع قبل أن يفتى فيه بجواز أو منع ، أو حِلٍّ أو حُرْمة ، فلا يكون كل بحثه وكل همه حول ما يجب أن يكون ، مغفلاً ما هو كائن بالفعل ، ولهذا قال العلامة ابن القيم : إن الفقيه هو مَن يزاوج بين الواجب والواقع .

وقبل ذلك قال الإمام أحمد فى بيان ما يجب أن يتصف به المفتى ، فذكر العلم والحلم .. إلخ . ثم قال : ومعرفة الناس . وهذه العبارة « معرفة الناس » تعبير عن معرفة الواقع . وقد علَّق عليها ابن القيم بقوله : هذا أصل عظيم يحتاج إليه المفتى والحاكم ، فإن لم يكن فقيهاً فيه ، فقيهاً فى الأمر والنهى ، ثم يطبّق أحدهما على الآخر ، وإلا كان ما يُفسد أكثر مما يُصلح (٢) .

ولا تتم معرفة الواقع على ما هو عليه حقيقة إلا بمعرفة العناصر الفاعلة فيه ،

---

(١) انظر : ما كتبته عن عامل تغير الفتوى من عوامل السعة والمرونة من ص ٢٠٠ - ٢٢٩ من كتابى « مدخل إلى دراسة الشريعة الإسلامية » - طبع مكتبة وهبة .

(٨) نقلها ابن القيم فى « إعلامه » : ٤/ ١٩٩ . وانظر كذلك كتابنا « الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية » ص ٤٧ ، ٤٨ - طبع دار القلم بالكويت .

والموجهة له ، والمؤثرة فى تكوينه وتلوينه ، سواء أكانت عناصر مادية أم معنوية ، بشرية أم غير بشرية . ومنها عناصر جغرافية وتاريخية واجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية وروحية .

وتفسير الواقع كتفسير التاريخ ، يتأثر باتجاه المفسر وانتمائه العقدى والفكرى .

وقد حذَّرنا فى كتابنا « الصحوة وهموم الوطن العربى والإسلامي » من النظرات : الجزئية ، والمحلية ، والآنية ، والسطحية ، والتلفيقية ، والتبريرية .

وهذا ما ينبغى أن نُحذِّر منه هنا أيضاً فى بيان الواقع وتفسيره .

فعلينا أن نُحذِّر من الاتجاه « الإطرائى » للواقع ، ومحاولة تحسينه ، وإبراز صورته سالمة من كل عيب ، منزَّهة عن كل نقص ، وغض الطرف عن العيوب الكامنة فيه ،وإن كانت تنخر فى كيانه ، واتهام كل مَن ينقد هذه العيوب والآفات بأنه مشوش ، أو مبالغ ، أو متطرف .

ولنحذر كذلك من الاتجاه « التشاؤمى » الذى ينظر إلى الواقع بمنظار أسود ، يُجَرِّده من كل حسنة ، ويلحق به كل نقيصة ، ولا يرى فيه إلا ظلمات متراكمة ، موروثة من عهود التخلف ، أو وافدة مع عهد الاستعمار . حكومات خائنة - بلسان أهل الوطنية - أو كافرة - بلسان أهل الدين - وجماهير مُضلَّلة ، وأقطار هى مجموعة أصفار !! وما يُرجى من تغيير ، أو يؤمل من إصلاح ، فهو سراب يحسبه الظمآن ماء .

ومثل ذلك : الاتجاه « التآمرى » فى تفسير الواقع ، الذى يرى وراء كل حدث - وإن صغر - أيديّاً أجنبية ، وقوىً خفية ، تحركه من وراء ستار ، يهودية ، أو صليبية ، أو ماسونية ، أو غيرها ، ونحن لا ننكر أن هناك كيداً خفيّاً لهذه الأمة ، يكيده لها أعداؤها الظاهرون والمستخْفون - سُنَّة الله فى خلقه - ولكن تضخيم ذلك بحيث يجعلنا « أحجاراً على رقعة شطرنج » يفت فى عضدنا ، ويوئسنا من أى توجه إيجابى لإرادة التغيير ، ويريحنا بأن نشعر

أننا أبداً ضحايا مَن هو أقوى منا ، ولا حل أمامنا غير الاستسلام للواقع المرّ . ومن ناحية أخرى يجعلنا هذا لا نعود على أنفسنا باللائمة ولا نحاول إصلاح ما فسد ، وتدارك ما وقع .

إن أَوْلى من تعليق أخطائنا على مشجب التآمر الخارجى ، أن نردها إلى الخلل الداخلى ، أى الخلل فى أنفسنا قبل كل شىء . وهذا ما قرره القرآن بعد هزيمة غزوة أُحُد ، حيث خاطب المسلمين فقال : ﴿ **أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ، قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ** ﴾ (١) .

وقريب من ذلك : الاتجاه « التنصّلى » فى تفسير الواقع ، بمعنى أن أحداً لا يريد أن يتحمل مسئولية ما فى هذا الواقع من سوء وانحراف ، فكل واحد ، وكل فريق ، يريد أن يحمل وزره على غيره ؛ أما هو فلا ذنب له ، ولا تَبِعة عليه .

الكل يشكو من الفساد ، ولكن مَن المسؤول عن فساد الحال ؟

جمهور كبير من الناس يحملون المسؤولية على العلماء ، والعلماء يحملون المسؤولية على الحكام ، والحكام يحملونها على الضغوط الخارجية أو الضرورات الداخلية .

والحق أن الجميع مسؤولون ، كل حسب ما له من مُكنة وسلطة : الجماهير والعلماء ، والمفكرون والمربون والحكام . وفى هذا جاء الحديث الصحيح : [كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته] (٢) .

ومن التفسيرات المحذورة للواقع : التفسير « التبريرى » الذى يحاول أن يضفى على الواقع ، ما يجعله مقبولاً ومشروعاً ، وإن حاد عن الحق وسواء السبيل ، وفى هذا لون من التدليس والتلبيس ، بإظهار الواقع على غير

---

(١) آل عمران : ١٦٥

(٢) متفق عليه من حديث ابن عمر . انظر : صحيح الجامع الصغير برقم (٤٥٦٩) .

حقيقته ، وإلباسه زيّاً غير زيه ، كالذى يُلبس الخواجة الأوروبى جبة وعمامة ، فيبدو وكأنه شيخ أزهرى مسلم ، وما هو من الإسلام ولا الأزهر فى شىء .

إننا نريد معرفة واقع عصرنا وعالمنا عموماً ، وواقع أمتنا خصوصاً كما هو ، دون تحريف ولا تزييف ، ولا تهويل ولا تهوين ، ولا مدح ولا ذم ، مستخدمين الأساليب العلمية الموضوعية فى الكشف والرصد والتحليل ، وفى هذا ما يساعدنا على تشخيص الداء ، ووصف الدواء .

إن خصومنا يعرفوننا تماماً ، من قمة رأسنا إلى أخمص قدمنا ، بل نحن - كما قال الدكتور كمال أبو المجد فى محاضرة له فى جامعة قطر - : مكشوفون لهم حتى النخاع .

فهل عرفنا نحن خصومنا ؟ وأقصد بخصومنا : أصحاب المشروع الحضارى المخالف لمشروعنا ، وكل الخائفين منا ، والطامعين فينا .

وإذا كنا لم نعرف أنفسنا كما عرفها غيرنا ، فأنّى لنا أن نطمع بمعرفتهم ؟

هل عرفنا « البُعد الدينى » فى سياسة الغرب العالمية ، وسياسته معنا على وجه الخصوص ؟ وعلى الأخص مع إسرائيل ؟ (١) .

هل عرفنا دور الكنيسة الحقيقى ، وأصابعها المؤثرة فى السياسة ، برغم انفصال الدين عن الدولة ؟

هل عرفنا ما ينفقه الغرب من مليارات وما يقوم به من جهود ، فى سبيل التنصير عامة ، وتنصير المسلمين خاصة (٢) ؟

---

(١) انظر كتاب « البُعد الدينى فى السياسة الأمريكية » للدكتور يوسف الحسن ، من منشورات مركز دراسات الوحدة العربية .

(٢) انظر كتاب « التنصير » . وهو يتضمن الترجمة العربية للبحوث التى قدّمها =

هل عرفنا أن الغرب المعاصر لم ينفصل عن تراثه ، بل بنى عليه ؟ ولم يفعل ما يطالبنا به بعض « التقدميين » أو « الليبراليين » منا ، وهو الانسلاخ من جلدنا ، أى من تراثنا [١] .

يقول المفكر المغربى الدكتور محمد عزير الحبابى : الغرب نفسه يتغير باطراد فى صيرورة متصاعدة ، فلا غرابة أن يعتمد على تراثه الخاص ، عساه يحافظ على معالم ثابتة فى هُويته ، وينفتح على ما يجرى خارج مناطقه ، دون تخوف من الذوبان . فمن العبث أن نقلد الغرب فى كل شىء علّنا نلتحق بالمعاصرة ، وفى الآن نفسه يرفض بعضنا الاقتداء به فى المحافظة على أصالتنا ، كما يحافظ هو على أصالته [٢] .

* *

● عصرنا بين الإيجابيات والسلبيات :

ولعصرنا خصائص تميزه عن غيره يجب أن ندركها ونستوعبها ، بما فيها من إيجابيات وسلبيات .

فهو عصر العلم والتكنولوچيا .

وهو عصر الحرية وحقوق الإنسان ، واستقلال الشعوب .

وهو عصر السرعة والقوة والتغيرات السريعة ، والتطورات الهائلة .

وهو عصر التضامّ والالتحام ، والظهور فى كتل كبيرة .

وهو عصر التخطيط والتنظيم لا الارتجالية والفوضى والتواكل .

= كبار المبشرين البروتستانت فى أمريكا إلى مؤتمر كلورادو سنة ١٩٧٨ م ، والخاص بـ « تنصير المسلمين فى العالَم » ، وهو كتاب خطير يجب أن يقرأ .

(٢) انظر كتاب « التراث وتحديات العصر » ص ١٠٤

obeikandl.com

وهو عصر اقتحام المستقبل ، وعدم الاكتفاء بالواقع ، فضلاً عن الانكفاء على الماضى .

وهذه كلها من إيجابيات العصر وإنجازاته ، إذا صحَّت الأهداف ، ووضعت الضوابط .

ولكن للعصر جوانب أخرى اقتضتها سُنَّة الله فى هذا الكون ، حيث تمتزج فيها الخيرات بالشرور ، والمنافع بالمضارّ ، واللَّذات بالآلام .

فهو عصر غلبة المادية والنفعية .

وهو عصر تدليل الإنسان بإشباع شهواته .

وهو عصر التلوث بكل مظاهره .

وهو عصر الوسائل والآلات ، لا عصر المقاصد والغايات .

وهو عصر القلق والأمراض النفسية ، والتمزقات الاجتماعية .

* *

● المعاصرة بين الجبر والاختيار :

وإذا كان لعصرنا سلبياته كما له إيجابياته ، فهل من مقتضى المعاصرة أن نأخذ العصر بكل ما فيه ، باعتباره وحدة لا تتجزّأ ؟ أم لنا حق الانتقاء والتخيّر ؟

وهذا يقتضينا أن نسأل هنا سؤالاً مهمّاً :

ما هو العصر ؟ وما موقفنا منه ؟

أهو قدر غالب لا مفرّ من الخضوع له ، والانحناء لجلاله ، ولا مفرّ لنا من أن نأخذه بعجره وبجره ، وخيره وشره ، وحلوه ومرّه ؟

أم من حقنا أن نأخذ من العصر أحسنه وأمثله ، وندع ما فيه مما لا يلائم عقائدنا وشرائعنا وقيمنا ؟

إن « العصر » - فى واقع الأمر - مثل « الوطن » هو الناس الذين يعيشون فيه ، بأفكارهم ومعارفهم وأعرافهم ومشاعرهم ، وأخلاقهم وأعمالهم ، وأنظمتهم وثقافاتهم ، بما فيها من صواب وخطأ ، ومن استقامة وعوج ، ومن خير وشر ، ومن نفع وضر .

ومن حق الناس - بل من واجبهم - أن يميِّزوا بين الصواب فى الفكر ، والخير فى السلوك ، والنافع من العمل ، فى العصر ، وبين الخطأ فى الفكر ، والشر فى السلوك ، والضار فى العمل ، مما جاء به العصر ، فيحرصوا على الجانب الأول ، ويأخذوا به ، ويجتهدوا فى اجتناب الجانب الآخر ما وسعهم الجهد .

ولسنا هنا مع « الجبرية الزمانية » التى تعتبر الإنسان « وعاء » يملؤه العصر بما يشاء ، وإن لم يشأ الإنسان .

كما أن هناك « جبرية مكانية » ترى الإنسان « مسيّراً » لبيئته الجغرافية ، هى التى تحدد شخصيته ، وتوجِّه فكره وسلوكه .

ونحن نرفض « الجبريات » كلها ، التى تعتبر الإنسان مُسيَّراً لا مُخيَّراً ، ومقهوراً لا مريداً ، سواء فى ذلك « الجبرية الدينية » القديمة التى تجعل الإنسان كريشة تحركها رياح الأقدار أم « الجبرية الاجتماعية » التى ترى الفرد دمية يُحرِّك خيوطها المجتمع ، أم « الجبرية السياسية » التى تشيع الآن وتجعل مجتمعاتنا كلها « أحجاراً على رقعة الشطرنج » !

إن الإنسان يتأثر - ولا ريب - ببيئته الخاصة والعامة ، المادية والثقافية ، كما يتأثر بعصره وزمانه ، ولكنه لا يفقد إرادته واختياره أمام هذه المؤثرات ، فقد منحه الله من القوى والملكات ما يجعله قادراً على حمل أمانة المسئولية ، وتقرير مصيره بنفسه وصنع يده : ﴿ **قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ، فَمَنْ أَبْصَرَ**

فَلنَفْسه ، وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ﴾ (١) ، ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ (٢) .

ومن المعلوم أن مِنَ الناس مَنْ يعيش خارج عصره ، فهو يهرب منه ليحيا فى الماضى القريب أو البعيد ، وهربه من العصر إما لنفوره منه وكراهيته له ، لما يشتمل عليه من أمور تهدد كيانه الاعتقادى أو الفكرى أو العملى . وإما لخوفه منه ، وضعفه أمام مغرياته وعوائقه ، وربما بالغ فى هذا الخوف لجهله بحقيقة العصر ، أو ضعف معرفته به ، أو فهمه على غير وجهه ، فلا يجد أمامه إلا العزلة عنه ، بدل المواجهة التى لا يملك أسلحتها .

كما أنَّ مِن الناس مَن يندمج فى العصر إلى حدّ الذوبان فيه ، فهو لا يقف من العصر موقف الفاحص المنتقى ، الذى يأخذ ويدع ، بل يأخذه كله ، وينزل فى بحره إلى الأعماق ، إلى حدّ قد يغرق فيه ، فلا يجد شاطئاً ، ولا قارباً للنجاة .

والخير فى الوسط الذى يعرف العصر ، ويحيا فيه ، آخذاً أحسن ما فيه ، ومنتفعاً بكل جوانبه الإيجابية الخيِّرة ، مُعْرِضاً عن الجوانب الأخرى التى تضر ولا تنفع .

* *

● ليس العصر هو الغرب :

ولا بد هنا من إيضاح حقيقة لها وزنها وقيمتها ، وهى : أن العصر ليس هو الغرب .

فمِن الناس مَن يعتبر أن عصرنا هو الغرب بكل ما فيه ، من خير وشر ، ورُشد وغىّ ، وهدىً وضلال ، واستقامة وانحراف . وأننا إذا شئنا أن نعيش

---

(١) الأنعام : ١٠٤ (٢) الإسراء : ٧

عصرنا حقاً ، يلزمنا أن نحيا حياة الغربيين بخيرها وشرها ، وحلوها ومرّها ، ما يحب منها وما يُكره ، وما يُحمد منها وما يُعاب .

ولكن البحث المتعمق المنصف يرينا أن الغرب - وإن كان هو المهيمن فى عصرنا على الحياة ، وكانت ثقافته هى الثقافة السائدة والغالبة على العالَم - ليس هو كل العالَم ، ولا كل العصر .

فهناك العالَم الإسلامى - على امتداده وسعته - له ثقافته الخاصة ، ومعارفه وقيمه المتميزة ، ورغم سطوة الغرب الساحقة فى عالَم الثقافة ، مثل سيطرته فى عالَم السياسة ، ورغم تأثر العالَم الإسلامى بالغرب تأثراً هائلاً فى كل أنماط الحياة - يظل العالَم الإسلامى متميزاً عن غيره من العوالِم الأخرى ، كتابية كانت أم وثنية .

وهناك عالَم الشرق الأقصى بدياناته وفلسفاته ، وطقوسه واتجاهاته ، وما فيها من حقائق وأساطير ، تكوّن جزراً ثقافية أخرى لم تستطع الديانات السماوية الكبرى أن تؤثر فيها التأثير الثقافى المطلوب .

ومن هنا نقول : إن العصر أوسع من الغرب ، برغم تأثيره البالغ عليه .

كما نقول أيضاً : إن الغرب ليس كله شراً ولا ضلالاً ، فكم فيه من علم نافع ، وكم فيه من عمل صالح ، وكم فيه من خُلُق كريم ، وكم فيه من إنجازات هائلة ، وإمكانات ضخمة ، يمكن توظيفها لصالح الإنسان ، كلّ إنسان .

لقد أقرَّ الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بعض الأحكام والتقاليد التى كان معمولاً بها فى الجاهلية ، حيث لم يجد فيها ما يخالف ما جاء به الإسلام .

وأقرَّ أشياء أخرى مع بعض التعديل ، لتتفق مع هداية الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقاً .

ونقل أشياء من الأمم الأخرى ، ولم ير فى ذلك بأساً ، مثل أسلوب حفر الخنادق ، ونصب المنجنيق فى الحرب ، ولم تكن من مكايد العرب فى حروبهم .

ونوَّه الرسول عليه الصلاة والسلام بحلف اشترك فيه فى صغره ، وهو فى الجاهلية ، لرد المظالم ، ونصرة المظلوم ، وقال عنه : [لو دُعيتُ لمثله فى الإسلام لأجبت] (١) .

وقال عليه الصلاة والسلام : [أصدق كلمة قالها شاعر ، كلمة لبيد :

« ألا كلّ شىء ما خلا الله باطل »] ! (٢)

وإنما قالها لبيد فى الجاهلية قبل أن يسلم .

وأشاد عليه السلام بخطبة سمعها قبل البعثة من قسّ بن ساعدة الإيادى فى سوق عكاظ .

لا حَرَج علينا إذن أن نقتبس من الغرب ما ينفعنا ، وما يليق بنا ، ويتلاءم مع قيمنا وثقافتنا ، وما يؤكد المبادىء التى دعا إليها ديننا .

وقد توجب علينا عملية الملاءمة هذه أن نُعدِّل ونُحوِّر - بالحذف والإضافة - فيما نقتبسه حتى يغدو صالحاً لنا ، متوافقاً مع أصول شريعتنا ، ونظام حياتنا ، وظروف بيئتنا . وقد يصبح بهذا التعديل والتحوير جزءاً من وجودنا المعنوى ، وكياننا الثقافى ، ويفقد جنسيته الأولى .

لا جُنَاح علينا أن نأخذ من الديموقراطية وضماناتها وعناصرها ما يؤكد مبدأ

---

(١) رواه ابن إسحاق فى السيرة كما فى ابن هشام ، بسند صحيح ، إلا أنه مرسل ، ولكن له شواهد تقويه . انظر : تخريج فقه السيرة للألبانى ، حديث رقم (٢٢) .

(٢) متفق عليه عن أبى هريرة ، كما فى صحيح الجامع الصغير (١٠١٣) .

الشورى ، ومبدأ النصيحة والمحاسبة للحاكم ، وحق عزله إن جار عما بويع عليه [1] .

وأن نأخذ من نظام القضاء والمحاكمات الغربى ، وأنواع المحاكم ودرجاتها ، ما يؤكد مبدأ العدل الذى فرضه الإسلام ، وأقام عليه الحكم .

وأن نأخذ مما ابتكره الغرب من أدوات للثقافة - كالسينما والمسرح والتلفاز والإذاعة - على أن نفرغ فيها المضمون الذى يتناسق معنا ، ويدعم هويتنا ، ونضع لها من الشروط والضوابط ما يجعلها أدوات بناء لا معاول هدم .

وكل ما لدى الغرب من وسائل وآليات لا بأس بأخذه منه ، إذا استخدمناه فيما يخدم أهدافنا ومقاصدنا . إذ لا حكم للوسائل إلا باعتبار مقاصدها ، وقد يرتقى أخذها واستيرادها إلى درجة الوجوب والفرضية لا مجرد الجواز والمشروعية ، إذا كانت وسيلة لازمة ومتعينة لأمر واجب ، وفقاً للقاعدة الشهيرة : « ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب » .

وليس هذا خاصّاً بالوسائل والأدوات المادية ، بل يشمل المعارف والأفكار النظرية أيضاً .

وقد نبهّتُ فى بعض ما كتبت من قبل [2] أن رفضنا لبعض الفلسفات والنظريات الكلية التى ظهرت فى الغرب ، وكان لها أتباع وأنصار ، كما كان لها خصوم وأعداء ، مثل نظرية « دارون » فى النشوء والارتقاء ، أو نظرية

---

(١) انظر : « **الإسلام والديموقراطية** » ، « **وتعدد الأحزاب فى الدولة الإسلامية** » من كتابى « **فتاوى معاصرة** » : ٢/٦٣٦ - ٦٦٥ ، طبع دار الوفاء بمصر ، وانظر : **فصل « هم الاستبداد السياسى » من كتابى « الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والإسلامى »** . نشر دار الرسالة ، بيروت ، ودار الصحوة بالقاهرة .

(٢) انظر كتابى « بيِّنات الحل الإسلامى » ص ٨٢ - ٨٦ تحت عنوان « مشروعية الاقتباس مما عند غيرنا وحدوده » .

« دوركايم » فى نشأة الدين وتفسير الظواهر الاجتماعية ، أو فلسفة « فرويد » فى التحليل النفسى وتفسير السلوك الإنسانى ، أو فلسفة « ماركس » فى التفسير المادى للتاريخ - رفضنا لهذه النظريات فى فلسفتها الكلية ، واتجاهها العام ، لا يعنى بالضرورة أن كل ما قاله هؤلاء باطل ، فقد نجد عند كل واحد من هؤلاء فى مجاله ، من النظرات العميقة ، والتحليلات الدقيقة ، والآراء الرشيدة ، ما ينبغى لنا أن ننتفع به ، ونفيد منه لفكرنا وثقافتنا ، تطبيقاً لما قاله سَلَفنا : « خذ الحكمة من أى وعاء خرجت » .

وقد حكى القرآن على لسان بعض المشركين كلمات حكيمة تتلوها الأجيال فى كتاب الله ، وتستضىء بها ، وإن كان قارئها غير مؤمن ، كما فى قوله على لسان ملكة سبأ : ﴿ **قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً** ﴾ (١) .

فبيَّنَتْ ما يفعله الفتح الملوكى (الاستعمارى) بالبلاد والعباد . وقد قالت ذلك قبل أن تسلم مع سليمان لله رب العالَمين .

ومثل ذلك قول امرأة العزيز : ﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي ، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (٢) .

وقد روى أبو داود عن الصحابى الفقيه معاذ بن جبل : « إن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم ، وقد يقول المنافق كلمة الحق . ولما قال له بعض أصحابه : وما يدرينى - رحمك الله - أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة ، وأن المنافق قد يقول كلمة الحق ؟ قال : بلى ، اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات - وفى بعض الروايات : المشتبهات - التى يقال لها :

---

(١) النمل : ٣٤ (٢) يوسف : ٥٣

ما هذه ؟! ولا يثنيك ذلك عنه ، فإنه لعله أن يراجع ، وتلقّ الحق إذا سمعته - أى ولو من منافق - فإن على الحق نوراً » (١) .

* *

● **استيراد الثقافة الغربية بكل عناصرها :**

ومن الدعوات المشبوهة هنا ما ينفّقُ له بعض الناس من وجوب فتح النوافذ للثقافة الغربية بكل ما فيها من صواب وخطأ ، ورشد وغىّ بحجتين يحتجون بهما :

الأولى : أن هذه الثقافة ثقافة عالَمية ، وليست ثقافة غربية . فإذا لم نفتح لها الأبواب والنوافذ على مصاريعها ، تخلّفنا عن ركْب العالَم المعاصر ، وبتنا فى عزلة قاتلة عن مسيرته الثقافية المتطورة .

والثانية : أن الثقافة أو الحضارة لا تتجزآ ، فهى لا تعطيك بعضها ، حتى تأخذها كلها ، فأجزاؤها مرتبطة ارتباطاً عضوياً بعضها مع بعض ، لا يجوز أن نأخذ الجانب المادى أو العلمى ، دون الجانب الأدبى ، ولا يسوغ أن نأخذ بعض الجانب الثقافى دون بعض .

* *

● **دعوى عالَمية الثقافة :**

أما الشبهة الأولى فهى مغالطة مكشوفة ، فمن المقرر المعلوم لدى الدارسين أن الثقافة غير العلم المحض ، القائم على الملاحظة والتجربة ، فهذا العلم التجريبى عالَمى حقاً ، فقوانين الفيزياء والكيمياء ، والفلك والتشريح والطب وغيرها قوانين عامة ، لا تتأثر بدين ولا وطن ولا قوم ، إلا فى عرضها

---

(١) رواه أبو داود فى كتاب « السُّنَّة » ، باب : لزوم السُّنَّة . عن معاذ موقوفاً برقم (٤٦١١) .

وتدريسها ، وربطها بالفلسفة العليا للكون كله ، وللوجود كله ، ووضع الضوابط لتوظيفها فيما يخدم الأهداف العليا للإنسان ، ولا يتعارض مع القيم الدينية والأخلاقية .

أما الثقافة فخصوصيتها ثابتة ومؤكدة ، لأنها ليست مجرد معارف ذهنية مجردة ، بل هى معارف وإدراكات ، ممزوجة بقيم واعتقادات ، مجسّدة فى أعمال وسلوكيات ، تعبِّر عنها شعائر وآداب وفنون ، تُقرأ وتُسمع ، وتُحَس وتُرَى .

وهى تتأثر فى ذلك كله بالدين واللغة ، والبيئة ، والمواريث الثقافية والحضارية ، والتفاعل مع الآخرين إيجاباً أو سلباً .

ولهذا تختلف ثقافة الشعوب بعضها عن بعض ، فثقافة أهل الشرق غير ثقافة أهل الغرب ، وثقافة أهل الإلحاد غير ثقافة أهل الدين ، وثقافة أهل الكتاب غير ثقافة الوثنيين ، وثقافة الحَضَر غير ثقافة البدو ، وثقافة العرب غير ثقافة العجم ، وثقافة المسلمين غير ثقافة غيرهم من أهل الملل الوضعية أو السماوية .

ولو نظرنا إلى الغرب ، لوجدنا ثقافة البلاد الليبرالية تختلف كثيراً عن البلاد الشيوعية ، ثم وجدنا الليبراليين يتفاوتون فيما بينهم ، فالثقافة اللاتينية غير السكسونية ، غير الجرمانية ، وهذه كلها غير الثقافة الأمريكية .

صحيح أن هناك قَدْراً مشتركاً بينها ، لاتفاقها فى الدين المسيحى ، والاستمداد من الحضارتين الإغريقية والرومانية ، وتشابه البيئة ، ولكن يبقى لكل منها تميّزه ومشخّصاته .

أما المسلمون - والعرب خاصة - فلهم ثقافتهم الخاصة التى تعبّر عن كينونتهم الحضارية المتميزة ، والتى اتسمت بخصائص قلّما تتوافر لغيرها ، تحدثنا عنها فى موضعها .

* *

● هل الحضارة كلّ لا يتجزّأ ؟

وأما الشُبْهة الأخرى ، وهى أن الثقافة أو الحضارة مرتبطة ارتباطاً عضوياً لا يقبل التجزئة ، بحيث يستحيل أخذ بعضها دون بعض . فهو قول مرفوض ، ودعوى مردودة ، يرفضها المنطق ، ويردها التاريخ والواقع .

لقد دعا الدكتور طه حسين إلى ذلك فى الثلاثينيات من هذا القرن العشرين - فى كتابه مستقبل الثقافة فى مصر - كما دعا إليه آخرون قبله وبعده وردّ عليهم آخرون قديماً وحديثاً .

وقد عرضت لذلك فى كتابى « الحلول المستوردة » (١) ، وبيَّنتُ أن الانتقاء من الحضارات والثقافات ممكن وواقع . وقد حدث قديماً وحدث فى عصرنا .

فقد أخذ المسلمون فى عصورهم الذهبية عن الفُرْس والهنود واليونان ، جوانب مختلفة من حضاراتهم وثقافاتهم ، وانتفعوا بها بقدر أو بآخر ، ولم يكن حتماً عليهم أن يأخذوا كل ما فى هذه الحضارات أو الثقافات .

وأخذ الأوربيون بعد ذلك من المسلمين المنهج العلمى الاستقرائى ، كما شهد بذلك المنصفون من مؤرخى العلم الغربيين أنفسهم (٢) ، وانتفعوا بهذا المنهج أيما انتفاع ، ولم يكن لازماً لذلك أن يأخذوا من المسلمين عقائدهم وتصوراتهم ، وعباداتهم وآدابهم ، وغير ذلك مما يُكوِّن ثقافتهم المتكاملة .

وأخذ اليابانيون اليوم من الغربيين علمهم الطبيعى والرياضى ، وما أثمره من تطبيقات تكنولوچية ، فأفادوا منه وتفوّقوا فيه على أصحابه أنفسهم ، ولم يأخذوا منهم ما يتعلق بالعقائد والشعائر والتقاليد ، وما ضرّهم ذلك شيئاً ، بل حفظ عليهم ذاتيتهم ، وشخصيتهم التاريخية المستقلة .

---

(١) فصل « كيف عُزِل الإسلام عن قيادة المجتمع » ؟

(٢) من أمثال « بريفولت » و« غوستاف لوبون » و« جورج سارتون » وغيرهم ، انظر : مناهج البحث عند مفكرى الإسلام واكتشاف المنهج العلمى فى العالم الإسلامى ، للدكتور سامى على النشار ، ص ٣٨٢ - ٣٨٥ ط. دار المعارف الثانية .

والمؤرخ المفكر الغربى الشهير « توينبى » ينقد بشدة غير الغربيين الذين يقلبون الحضارة الغربية بكل عناصرها ، ويرى ذلك من سوء حظ البَشرية . وذلك حين يتحدث عن البلاد التى تحررت من الاستعمار الغربى ، فيقول فى « محاضراته » :

« ولكن هذه البلاد التى استقلت سياسياً ، ما زالت غير متحررة تماماً من الوجهة الثقافية ، فهى لا تزال متأثرة بالأفكار والمُثُل العليا الغربية ، دون تمييز ودون أى انتقاد لها » .

وفى موضع آخر يقول : « على أن كل هذه البلاد التى نجحت فى أن تحرر نفسها من سيطرة الغرب السياسية ، قد استغلت حريتها على نحو غير متوقع على الإطلاق . فقد ناضلت هذه البلاد بعنف شديد ضد السيطرة السياسية للغرب . ويمكن القول بأن كفاحها هذا قد كلّل بالنجاح فى كل الحالات حتى الآن . ولقد كان من المتوقع بعد أن تمكنت من أن تتحرر سياسيّاً من الغرب ، أن تستخدم هذه الحرية الجديدة التى اكتسبتها فى النضال ضد المدنية الغربية بوجه عام ؛ أى أنه كان من المتوقع أن تستخدم هذه البلاد حريتها المكتسبة حديثاً ، لكى ترجع إلى أسلوبها التقليدى فى الحياة ، وهو الأسلوب الذى كان سائداً فى حياتها قبل أن يسيطر عليها الغرب . ولكن الذى حدث فى جميع الحالات تقريباً - كما نعلم - هو أن البلاد التى تحررت حديثاً قد استخدمت حريتها للغرض العكسى تماماً ؛ أى أنها قد استخدمتها لتقتبس - بمحض اختيارها - عناصر من المدنية الغربية ، أعنى من أسلوب الحياة الحديثة ، وقد فعلت ذلك بحماسة ، وبلغت حماستها هذه حدّاً لم يكن الحكّام الغربيون السابقون يجرؤون على أن يفرضوا به المدنية الغربية عليهم ، ذلك لأن نظام الحكم الأجنبى ، يتعين عليه دائماً أن يكون أكثر حذراً من نظام الحكم القومى ، وهناك أمور لا يجرؤ النظام الأجنبى على فعلها مطلقاً ، ومع ذلك يجرؤ عليها النظام القومى » .

« ولكننى أعتقد أنه سيكون من سوء حظ الجنس البَشرى كله - وضمنه

الغرب ذاته - أن يتّجه الجزء غير الغربى من العالَم إلى قبول المدنية الغربية بكل عناصرها دون تمييز ، ودون تفرقة بين ما هو نافع وما هو ضارّ فيها ، وأقول : إن هذا يكون من سوء الحظ ، لأن المدنية الغربية - شأنها شأن أى مدنية أخرى - فيها أوجه نافعة وأوجه ضارّة .

ذلك لأن المستوى المادى للمعيشة ، ليس غاية فى ذاته ، وإنما هو وسيلة لغاية أخرى هى رفع المستوى الروحى .

وعلى ذلك فمن وراء رأس المال المادى ، يوجد رأس المال الإنسانى ، وهو أهم رأس مال يملكه البَشر » (١) .

* *

● دفاع العلمانيين عن استيراد المذاهب والأفكار :

لقد دافعت بعض الأقلام العلمانية فى ديارنا العربية الإسلامية عن اتجاه « الاستيراد » : استيراد المذاهب والأفكار من خارج أرضنا ، واستغرب بعضهم النقد الذى يوجهه « دعاة الأصالة » إلى المذاهب المستوردة ، والأفكار المستوردة ، والحلول المستوردة ، وحُجَّة هؤلاء : أن الحياة قائمة على التبادل ، هذا يصدّر ، وهذا يورّد ، وهذا يبيع ، وهذا يشترى ، وهذا يعطى ، وهذا يأخذ . وكما يحدث هذا فى عالَم « الأشياء » ، فلماذا لا يحدث مثله فى عالم « الأفكار » ؟ وفق تقسيم مالك بن نبى رحمه الله .

وغفل هؤلاء عن عدة حقائق :

الأولى : أن دعاة الأصالة لا ينكرون استيراد الأفكار الجزئية ، أو الحلول الجزئية لمشكلاتنا من الغرب أو الشرق ، إذا كانت ملائمة لنا ، محققة لأهدافنا ، نختارها نحن ولا تُختار لنا أو تُفرض علينا . بل قد يوجبون الاستيراد إذا رأوا فيه مصلحة متعينة لأمتنا ، وبخاصة ما يتعلق بالوسائل والأساليب .

---

(١) انظر : محاضرات « أرنولد توينبى » ص ٣٥ - ٤٠ ، وانظر كتابنا : « الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا » ص ١٣٧ - ١٣٨ ، طبع الرسالة ، بيروت .

إنما ينكرون استيراد مذهب كامل نتخذه مرجعاً لنا ، أو فكر كلى ، أو حل كلى ، نؤسس عليه حياتنا كالفكر - أو الحل - الليبرالى الرأسمالى ، أو الفكر - أو الحل - الاشتراكى الثورى الماركسى ، كما نادى منادون بهذا أو ذاك أيام نفاق سوقها فى بلادها .

الثانية : أن دعاة الأصالة ينكرون أن نظل نحن نستورد أبداً ولا نصدِّر ، ونشترى ولا نبيع ، ونأخذ ولا نعطى ، ونستهلك ولا ننتج ، فهذا ليس من « التبادل » فى شىء . إنما نحن - حينئذٍ - سوق لسلع الآخرين ، وأفواه مفتوحة لالتهام منتجاتهم . وهذه هى « التبعية » الذليلة المرفوضة ، التى لا يجوز أن ترضى بها أمة كريمة على نفسها ، لا فى عالَم الأشياء ، ولا فى عالَم الأفكار .

وإذا سقطت أمة فى مرحلة ما من تاريخها فى هوة الاستيراد من جانب واحد ، فعليها أن تعتبر ذلك نقطة ضعف يجب أن تتجاوزها وتتحرر منها ، ولا تدافع عنها أو تباهى بها .

الثالثة : أن علم الاقتصاد الذى يستند إليه هؤلاء العلمانيون ، والذى يرى أن الحياة قائمة على التبادل ، وأن الاستيراد كثيراً ما يكون ضرورياً للأمم والجماعات ، هذا العلم نفسه يقيد هذا بقيود تجعله وسيلة نفع لا أداة ضرر ، وآلة بناء لا معول هدم .

فلا يجوز أن نستورد من غيرنا ما يضرنا مادياً أو معنوياً ، كالذي يسمونه « المشروبات الروحية » وأدوات الاستهلاك الترفى ، ولوازم اللهو الحرام .

ولا يجوز أن نستورد إذا كان الاستيراد يعوِّد الشعب الاتكال على ما عند غيره ، لا الاعتماد على نفسه ، ليأكل مما يزرع ، ويلبس مما يصنع ، ويستهلك مما ينتج ، ويدافع عن نفسه بأسلحة من صنع يديه .

وفوق ذلك كله لا يجوز أن نستورد سلعة من غيرنا إذا كان لدينا سلعة مثلها ، ناهيك بسلعة أفضل منها .

وهذا ما جعل دعاة الأصالة العربية الإسلامية ينكرون استيراد أيديولوچيات ومذاهب ، نبتت فى أرض غير أرضنا ، لتخاطب قوماً غير قومنا ، وتحمل لتفسير الوجود والمعرفة والقيم فلسفة غير فلسفتنا ، وتتعامل مع الله والإنسان ، والكون والحياة بثقافة غير ثقافتنا .

* *

● النموذج الغربى للتنمية :

وإذا كان الغرب ليس هو العصر ، فمن حقنا أن نتوقف أمام بعض دعاة المعاصرة الذين يريدوننا - لكى نكون معاصرين حقّاً - أن نأخذ « النموذج الغربى » فى التنمية ، بكل ما أفرز من سلبيات فى محيط الكون والحياة والإنسان . ويرون أنه لا سبيل لأن تنمو مجتمعاتنا وتنهض من كبوتها ، وتخرج من إسار التخلف ، إلا إذا قلّدت هذا النموذج حذوه القذّة بالقذّة .

هذا مع أن الغربيين أنفسهم اليوم يوجهون سهام نقدهم إلى هذا النموذج الذى غلبت عليه نزعات المادية والنفعية ، والآنية والمحلية والعنصرية جميعاً .

لقد عدا النموذج الغربى على التوازن الكونى ، وأمسى الناس يشكون اليوم من الخلل الذى أصاب طبقة « الأوزون » ، والذى ترتب عليه خلل كبير فى حياة الناس ، قد يتفاقم فيؤدى إلى نتائج لا يعلم عواقبها إلا الله .

وعدا النموذج الغربى على « التوازن الفطرى » الذى أودعه الله الحياة بعناصرها وأنواعها المختلفة ، فكان من أثره ما جعل الناس يشكون من « تلوّث البيئة » بمختلف مظاهره .

وأشد من خطر تلوّث البيئة : تلوّث الإنسان نفسه . حين تفسد فطرته ، وتختل موازينه ، ويعوج تفكيره وسلوكه ، فيرتكب من الحماقات ، ويقترف من المنكرات والشذوذات ، ما يُعاقَب عليه فى الدنيا ، قبل الآخرة ، تعاقبه فطرة الله فى الأرض قبل أن تعاقبه محكمته فى السماء .

ومن هنا كان « الإيدز » ، وكانت الأمراض العصبية والنفسية ، وكان القلق والاكتئاب ، المنتهى بالانتحار ، والتخلص من الحياة ، أو العيش فى الحياة باعتبارها ملهاة أو مأساة ! على نحو ما قال شاعرنا العربى قديماً :

ليس مَن مات فاستراح بميْتٍ ... إنما الميْت ميّتُ الأحياء

إنما الميت مَن يعيش كئيباً ... كاسفاً بالُهُ قليلَ الرجاء

لقد أدّى هذا النموذج بنزعاته تلك إلى أن جعل الإنسان عبداً للآلة ، التى هو صانعها ، وأن أصبح فى النهاية ترساً فى هذه الماكينة الكبيرة الجبارة ، إن لم يسر معها ويدر بدورانها ، طحنته عجلاتها ، ولم يبال به أحد .

لقد قدَّمت له التنمية الصناعية - الخالية من القيم الإيمانية والأخلاقية - الوسائل ، ولم تقدِّم له الغايات ، قدَّمت له الرفاهية ، ولم تقدِّم له السكينة ، منحته المادة ، وسلبته الروح ، أعطته العلم ، وحرمته الإيمان .

لا غرو أن وجدنا من فلاسفتهم ومفكريهم ، وعلمائهم وأدبائهم ، من سلَّطوا أضواءهم الكاشفة والناقدة على عورات هذا النموذج المسرف فى المادية ، والذى جعل التنمية غاية أو إلَهاً معبوداً .

ومن أشهر نقادهم هنا : اثنان من حملة جائزة نوبل فى العلوم ، وهما : « ألكسيس كاريل » ، و« رينيه دوبو » (١) .

هذا ما صنعه الغرب بنفسه حتى نما ، ناهيك بما صنعه بغيره من الشعوب والأوطان .

---

(١) انظر : « رينيه دوبو » فى كتابه « إنسانية الإنسان » ترجمة د . نبيل صبحى الطويل ، و« ألكسيس كاريل » فى كتابه « الإنسان ذلك المجهول » ترجمة أسعد شفيق ، و« كولن ولسون » فى كتابه « سقوط الحضارة » ، وغيرهم .

لقد سرق ثرواتها سراً وعلانية ، ليكوّن منها رصيداً ضخماً لثروته الكبرى . لقد أفقرها ليغتنى هو . إنها اللصوصية بعينها .

لقد قتل الآخرين ليحيا ، صنع من جماجمهم حجارة لبناء رفاهيته ، وزخرف أبنيته بدمائهم .

واليوم ، ونحن نسعى إلى التنمية بكل طاقاتنا ، هل يلزمنا أن نقلد هذا النموذج ، ونتخذه إماماً ؟

إن واجبنا أن نضعه على مشرحة التحليل ، لنعرف مكوّناته ، ونحلله إلى عناصره الأولية ، فنأخذ منه ما ثبت نفعه ، ونتجنب ما ثبت ضرره وإثمه ، أو ما كان إثمه أكبر من نفعه . وأن نُحوِّر فيه ونُعدِّل حتى يلائمنا .

إن التنمية التى نتبناها هى التنمية بمفهومها الشامل ، الذى يعتبر الإنسان هدف التنمية ووسيلتها فى آنٍ واحد ، والذى يهدف إلى تنمية الإنسان كله : جسمه ، وعقله ، وعاطفته ، وروحه وضميره . الإنسان فرداً ، والإنسان مجتمعاً ، الإنسان طفلاً ، والإنسان شاباً والإنسان شيخاً . الإنسان رجلاً ، والإنسان امرأة . الإنسان الأبيض ، والإنسان الأسود ، والإنسان الملوّن .

* * *

٢ - العلم والتكنولوچيا :

إن أهم مقتضيات المعاصرة ، وبعبارة أخرى : أهم ما نأخذه من « العصر » هو : العلم وتطبيقاته « التكنولوچية » ، العلم بمعناه الحديث ، القائم على الملاحظة والتجريب . العلم الطبيعى والرياضى ، إلى آخر مدىً وصلا إليه . العلم الذى أوصل الإنسان إلى غزو الفضاء ، وصنع الحاسوب (الكومبيوتر) والهندسة الوراثية ، التى انتهت إلى مرحلة يعبرون عنها بـ « الثورة البيولوچية » .

إننا إذا قلنا : إن أصالتنا الإسلامية والعربية لا تمنعنا من أخذ هذا العلم والاقتباس منه والانتفاع به ، نكون قد ظلمنا أصالتنا .

فالواقع أنها توجب علينا ذلك إيجاباً ، من أكثر من جهة :

١ - من جهة أن من فروض الكفاية على الأمة - التى لا خلاف عليها - أن تتقن كل علم تحتاج إليه فى دينها أو دنياها ، وأن يكون لديها من المتخصصين والخبراء فيه ما يقوم بكفايتها ، ويغنيها عن غيرها .

وفرض الكفاية هو ما يجب على الأمة فى مجموعها وجوباً تضامنياً ، بحيث إذا قام به عدد كافٍ سقط الإثم عن سائر الأمة ، وإلا أثمت كلها .

٢ - ومن جهة أن الأمة مطالَبة بأن تكون فى مكان الأستاذية للأمم ، التى يعبر عنها القرآن بـ « الشهادة على الناس » ، وذلك فى مثل قوله تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً** ﴾ (١) .

وهذه المكانة التى بوأها القرآن للأمة توجب عليها أن تتفوق فى كل ما يعزز مكانتها ، ويعينها على أداء رسالتها الحضارية ، وفى مقدمة ذلك العلم الذى جعله الله المرشح الأول لاستحقاق الإنسان منصب الخلافة فى الأرض كما تدل على ذلك آيات : ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ، إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا**

---

(١) البقرة : ١٤٣

أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (١) .

فلا يجوز للأمة المسلمة أن تظل عالة على غيرها ، وأن ترضى بالبقاء فى ذيل القافلة البَشرية وموضعها فى الطليعة .

٣ - ومن جهة أن الأمة يجب أن تكون سيدة فى أرضها ، لا سلطان لأحد عليها ، فهى بالإسلام تعلو ولا تُعلى ، وتحكم ولا تُحكم . ويجب لذلك أن تُعِدَّ لأعدائها القائمين والمحتملين ما استطاعت من قوة ، دفاعاً عن حرماتها ، وذوداً عن دعوتها ، وتمكيناً لحضارتها ، وإرهاباً لعدو الله وعدوها .

وإذا كان العلم والتكنولوچيا التى هى ثمرته وسيلة لازمة لذلك ، كان من الواجب الحتمى شرعاً اكتساب هذا العلم وكل ما يؤهل له ويعين عليه ، تطبيقاً للقاعدة الشرعية المتفق عليها ، وهى : « ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب » .

٤ - ومن جهة رابعة : أن العلم الحديث ييسر على الإنسان كثيراً من أمور حياته ، ويساعده على أداء واجباته ، فى وقت أسرع ، وبجهد أقل ، وبصورة أفضل ، ويسهل له أشياء لم يكن يحلم بها من قبل مجرد حلم .

ولا يجوز أن يحرم المجتمع المسلم ، ولا الفرد المسلم من ثمرات هذا كله ، بل هو أولى الناس بالاستفادة من هذا العلم ، الذى يعتبره نعمة من الله الذى : **﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾** (٢) . والذى يجب أن يشكر الله تعالى عليها ، وشكر النعمة باستخدامها فيما خلقت له ، مما يحبه الله تعالى ويرضاه ، لا مما يكرهه ويسخطه .

ثم إن الله تعالى يريد بالناس اليُسر ، ولا يريد بهم العُسر ، والشريعة تأمر

---

(١) البقرة : ٣٠ - ٣٣ (٢) العلق : ٥

بتحصيل المصالح الخالصة أو الراجحة ، فإذا ثبت أن وراء هذا العلم تيسيراً ومصلحة فهو مطلوب شرعاً .

وقد استخدم المسلمون هذا العلم فى طباعة المصاحف والكتب الدينية ، ونشر العلم وتعليم الدين ، وتسهيل أداء عباداته ، مثل فريضة الحج ، وغيرها . واليوم يجتهدون فى استخدام « الكومبيوتر » فى خدمة السُنَّة النبوية والعلوم الشرعية واللغوية ، فهو عون على الدين والدنيا .

٥ - ومن جهة خامسة : أن هذا العلم الذى نأخذه اليوم من الغرب ، قد أخذه الغرب بالأمس منا ، من حضارتنا . وهذا ما شهد به الغربيون أنفسهم ، فهو إذن بضاعتنا تُرَد إلينا ، ولسنا بالغرباء عنه ، ولا الدخلاء عليه .

صحيح أن العلم المعاصر لم يعد هو العلم الذى اقتبسه الغرب منا قديماً ، فقد خطا خطوات واسعة ، وقفز قفزات هائلة ، من عصر الصناعة الأول إلى عصر الصناعة الثانى ، إلى ما نراه اليوم من تكنولوچيا متطورة ، ومن نتائج بعيدة المدى ، ومن طموحات تكاد تغيّر وجه الحياة . ولكن أصول هذا المنهج العقلية والعلمية أصول إسلامية ، وقد قيل : « الفضل للمبتدى ، وإن أحسن المقتدى » .

ومهما يكن الأمر فى أصل هذا العلم ومصدره ، فهو الآن فى صورته الأخيرة **علم غربى ، شئنا أم أبينا ، وهو كذلك أحد مستلزمات العصر ، ولا معاصرة لنا إذا لم نعبّه عبّاً ، لا يكفينا منه مجرد الارتشاف ، ، لا بد من الوصول إلى درجة « الإحسان » فى هذا العلم ، فإن الله كتب الإحسان على كل شىء** .

* *

● شراء التكنولوچيا :

ولا ينفعنا هنا ما زعمه بعضهم يوماً : أننا يمكننا بأموالنا - التى هيأها لنا النفط وغيره - أن نشترى التكنولوچيا من أى مكان فى العالَم ، ونستخدمها

كما نريد ، ونوظفها فى إنهاض أوطاننا ، وتطوير أوضاعنا ، وتحقيق طموحاتنا التنموية .

فالواقع أن التكنولوچيا التى تُشترى لا تُطوِّر المجتمع ، ولا تنقله إلى العصر ؛ بل تساعده على الاستهلاك لا الإنتاج ، والتقليد لا الإبداع ، وتغيير المظهر لا الجوهر ، والمبنى لا المعنى .

والذين يبيعوننا التكنولوچيا ليسوا بلهاء ، بحيث يبيعوننا ما يجعلنا نستغنى عنهم ؛ إنما يعطوننا البعض لا الكل ، والفرع لا الأصل ، حتى نظل مربوطين بهم ، مشدودين إليهم ، مفتقرين إلى عونهم .

ولا يزال الناس يذكرون فى الخليج تلك المدينة الخليجية الكبرى التى تعطلت فيها إحدى محطات الكهرباء الرئيسة ، فعاش نحو ثلث سكانها محرومين من كل آثار الكهرباء فى الحياة الحديثة : لا ثلاجة ولا مكيف ولا مروحة ، ولا مصعد ولا تلفاز ، ولا . . ولا . . حتى أرسل المصنع أو الشركة التى اشتريت منها المحطة الخواجة المهندس الذى أصلحها !

إن التكنولوچيا المطلوبة هى التى تُستنبت فى أرضنا ، وتنمو بنمونا ، وتتفاعل مع واقعنا ، وتمدها عقول أبنائنا ، وتحملها سواعدهم . ونحن لها أهل إذا استبانت الوجهة ، واتضح السبيل . والدين أعظم ما يعيننا على ذلك إذا أحسنا فقهه ، وعملنا بتوجيهه .

* *

● لا تناقض بين النقل والعقل :

وما أوهمه بعض الكُتَّاب من أن البيئة الدينية لا تهيىء لمناخ علمى مزدهر ، بافتراض وجود صراع بين النقل والعقل ، أو بين النص الإلَهى والاجتهاد الإنسانى ، غير صحيح ، بل ترده النصوص ، ويرده التاريخ ، ويرده الواقع؛ فالعقل هو المخاطَب بنص الشارع ، والمكلَّف بفهمه والعمل به ، والاجتهاد

فى دلالته ، وملء الفراغ فيما لا نص فيه . وقد ترك النقل - أو الوحى - للعقل شؤون الكون والحياة كلها يصول فيها ويجول ، ولم يجحر عليه فى ذلك بل أمره وحرَّضه ودعاه .

والمحققون من علماء الأمة اعتبروا الوحى والعقل هاديين للخلق إلى الحق . يقول الإمام الراغب الأصفهانى فى كتابه القيم « الذريعة إلى مكارم الشريعة » :

« لله عَزَّ وجَلَّ إلى خلقه رسولان ، أحدهما : من الباطن وهو العقل ، والثانى : من الظاهر وهو الرسول ، ولا سبيل لأحد إلى الانتفاع بالرسول الظاهر ما لم يتقدمه الانتفاع بالباطن ، فالباطن يعرف صحة دعوى الظاهر ، ولولاه لما كانت تلزم الحُجَّة بقوله ، ولهذا أحال الله مَن يشكك فى وحدانيته وصحة نبوة أنبيائه على العقل ، فأمره بأن يفزع إليه فى معرفة صحتها . فالعقل قائد والدين مدد ، ولو لم يكن العقل لم يكن الدين باقياً ، ولو لم يكن الدين لأصبح العقل حائراً ، واجتماعهما كما قال الله تعالى : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ (١) .

ويؤكد ذلك معاصر الراغب الإمام أبو حامد الغزالى فى عدد من كتبه . ففى مقدمة « المستصفى » يعتبر العقل القاضى الذى لا يُعْزَل ولا يبدَّل ، والشرع الشاهد المزكَّى المعدّل ، ويجعل العقل مركب الديانة وحامل الأمانة (٢) .

وفى « الإحياء » يقرر أن لا غنى بالشرع عن العقل ، ولا بالعقل عن الشرع « فإن العلوم العقلية كالأغذية ، والعلوم الشرعية كالأدوية ، والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء » ، وينكر على مَن يظن أن العلوم

---

(١) النور : ٣٥ ، وانظر : الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٢٠٧ بتحقيق د . أبو اليزيد العجمى ، طبع دار الصحوة بالقاهرة .

(٢) المستصفى : ٣/١

العقلية مناقضة للعلوم الشرعية ، وأن الجمع بينهما غير ممكن . وهو فى رأيه ظن صادر عن عمىً فى عين البصيرة [١] .

وفى « الاقتصاد فى الاعتقاد » يصف عصابة الحق وأهل السُنَّة أنهم الذين وفَّقوا بين مقتضيات الشرائع ، وموجبات العقول ، وتحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول [٢] .

وفى كتاب « معارج القدس » الذى يُنسب للغزالى نقرأ هذه الكلمات :

« اعلم أن العقل لن يهتدى إلا بالشرع ، والشرع لم يتبين إلا بالعقل . فالعقل كالأسّ والشرع كالبناء ، ولن يغنى أسّ ما لم يكن بناء ، ولن يثبت بناء ما لم يكن أسّ .

وأيضاً ، فالعقل كالبصر ، والشرع كالشعاع ، ولن يغنى البصر ما يكن شعاع من خارج ، ولن يغنى الشعاع ما لم يكن بصر ، فالشرع عقل من خارج ، والعقل شرع من داخل ، وهما متعاضدان ، بل متحدان [٣] .

ولا غرو أن وجدنا فى تاريخ حضارتنا كثيراً ممن نبغوا فى المجالين : العلوم الشرعية ، والعلوم العقلية . ومن هذه العلوم العقلية : العلوم الطبيعية ، والرياضية والطبية .

فجابر بن حيان يسمى جابراً الصوفى .

والخوارزمى مبتكر علم الجبر ، إنما وصل إليه ، وهو يؤلف رسالة فى فقه الوصايا والفرائض .

---

(١) الإحياء : ١٧/٣ ، طبع دار المعرفة ، بيروت . ويلاحظ أن الراغب فى « الذريعة » يرى الشرعيات كالأغذية ، والمعقولات كالأدوية ، باعتبار آخر ص ٢٠٨

(٢) من مقدمة كتاب « الاقتصاد فى الاعتقاد » للغزالى .

(٣) معارج القدس ص ٥٧ ، طبع دار الآفاق الجديدة ، بيروت . وانظر : تعليقنا عليه فى كتابنا « الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه » ص ٤١

وابن رشد الحفيد صاحب كتاب « الكليات » فى الطب الذى تتلمذت عليه أوروبا عدة قرون ، هو نفسه صاحب كتاب « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » فى الفقه المقارن ، وهو قاضٍ شرعى من فقهاء المالكية .

والفخر الرازى صاحب « التفسير الكبير » والكتب الشهيرة فى علم أصول الفقه وعلم أصول الدين ، كان من أشهر الأطباء فى زمنه ، ولم تكن شهرته فى الطب تقل عن شهرته فى علوم الدين .

وابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى ، وأول مَن أشار إلى الحويصلات الرئوية والشرايين التاجية ، هو أحد فقهاء الشافعية الذين ترجم لهم ابن السبكى فى « طبقاته » ، وترجم لهم الذهبى وغيره من مؤرخى الأعلام فى الإسلام [1] .

* *

● استخدام أسلوب الإحصاء :

وإذا كان عصرنا يعتبر استخدام أسلوب الإحصاء من أبرز دلائل الطريقة العلمية فى معالجة الأمور ، وهو فارق مميِّز بين العلميين والعشوائيين ، أو الغوغائيين من الناس ، فإن النبى ﷺ قد بادر إلى الانتفاع بالإحصاء منذ عهد مبكر من إقامة دولته بالمدينة .

فقد روى البخارى ومسلم عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ ، فقال : [أحصوا لى كم يلفظ الإسلام] .

وفى رواية للبخارى أنه قال : [اكتبوا لى مَن يلفظ بالإسلام من الناس] قال حذيفة : فكتبنا ألفاً وخمسمائه رجل . . . [2] الحديث .

---

(١) انظر فى تراجم هؤلاء : الأعلام للزركلى .

(٢) انظر جامع الأصول : ١٠/ ١٠٠ ، حديث رقم (٧٥٧٠) ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط .

فهو إحصاء كتابى يراد تدوينه وتثبيته ، وذلك ليعرف عليه الصلاة والسلام مقدار القوة البَشرية الضاربة ، التى يستطيع بها أن يواجه أعداءه المتربصين به ، ولهذا كان الإحصاء للرجال فقط ، أى القادرين على القتال .

والإحصاء الذى تم فى عهد مبكر من حياة الدولة المسلمة ، وتم بأمر من الرسول نفسه فى سهولة ويسر ، يرينا إلى أىّ حد يرحب الإسلام باستخدام الوسائل العلمية .

وفى مقابل هذا نجد فى « العهد القديم » : أن أحد أنبياء بنى إسرائيل أراد أن يعمل لهم إحصاء فنزلت عقوبة سماوية بهم ! كأنما « الإحصاء » يمثل تحدياً للقدر أو للإرادة الإلَهية . وهذا ما استنبط منه الفيلسوف المعاصر الشهير « برتراند راسل » أن تعاليم « التوراة » ، والكتاب المقدس لا تتيح مناخاً مناسباً لإنشاء عقلية علمية .

❊ ❊

● التخطيط :

وإذا كان الإحصاء من دلائل الطريقة العلمية فالتخطيط كذلك ، بل هو أوضح دلالةً عليها ، والتخطيط إنما يعتمد على الإحصاء ، ويراد بالتخطيط وضع خطة لمواجهة احتمالات المستقبل ، وتحقيق الأهداف المنشودة .

ومِنَ الناس مَنْ يتصوَّرون أو يصوِّرون الدين فى موقف المعارض أو المناقض لفكرة التخطيط العلمى للمستقبل . وهذا من أثر الفكرة القديمة التى جعلت العلم مقابلاً للإيمان ، فهما ضدَّان لا يجتمعان ، أو خطَّان متوازيان لا يلتقيان .

والحقيقة أن فكرة الدين فى جوهرها قائمة على أساس التخطيط للمستقبل . ففيه يأخذ المرء المتدين من يومه لغده ، وبعبارة أخرى من حياته لموته ، ومن دنياه لآخرته ، ولا بد له أن يخطط حياته ، ويضع لنفسه - فى ضوء الوحى- منهاجاً يوصله إلى الغاية ، وهى رضوان الله ومثوبته .

وفى القرآن الكريم قصة جعلها الله عبرة لأولى الألباب ، وهى قصة نبى الله يوسف عليه السلام ، وفيها يذكر القرآن لنا مشروع تخطيط للاقتصاد الزراعى لمدة خمسة عشر عاماً ، لمواجهة أزمة غذائية عامة . عرف يوسف - بما ألهمه الله ، وعلَّمه من تأويل الأحاديث - أنها ستصيب المنطقة كلها ، وقد اقترح يوسف عيه السلام مشروع الخطة . ووُكل إليه تنفيذُها ، وكان فيها الخير والبركة على مصر وما حولها ، : ﴿ **قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فى سُنبُله إلاَّ قَليلاً ممَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتى من بَعْد ذَلكَ سَبْعٌ شدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَمْتُمْ لَهُنَّ إلاَّ قَليلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتى من بَعْدِ ذَلكَ عَامٌ فيه يُغَاثُ النَّاسُ وَفيه يَعْصرُونَ** ﴾ (١) .

ويظن آخرون أن التخطيط للغد ينافى التوكل على الله ، أو الإيمان بقضائه ، وقدره ؛ ولهذا يستبعدون كل الاستبعاد أن يقبل الدين فكرة التخطيط ، فضلاً عن أن يوجه إليه ، أو يحث عليه .

والحق أن الذى يتعمق فى دراسة كتاب الله ، وسُنَّة رسوله يتبين له أنهما يرفضان الارتجال والعشوائية ، وترك الأمور تجرى فى أعنتها بغير ضابط ، ولا رابط ولا نظام . وبين الرسول ﷺ أن التوكل على الله لا يعنى اطّراح الأسباب أو إغفال السنن ، التى أقام الله عليها نظام هذا الوجود ، ولا يكاد مسلم يجهل قصة الأعرابى الذى جاء إلى النبى ﷺ ، وترك ناقته أمام المسجد قائلاً : يا رسول الله ، أأعقل ناقتى وأتوكل أم أطلقها وأتوكل ؟ فقال له : [اعقلها وتوكّل] (٢) .

---

(١) يوسف : ٤٧ - ٤٩

(٢) رواه الترمذى من حديث أنس ، وقال : غريب - أى ضعيف ، وأنكره يحيى القطان ، لكن أخرجه ابن حبان فى صحيحه من حديث عمرو بن أمية الضمرى ، وإسناده - كما قال الزركشى : صحيح - ورواه عنه أيضاً ابن خزيمة فى صحيحه بلفظ : =

وقال الإمام الطبرى يرد على مَن زعم أن تعاطى الأسباب يؤثرُ فى كمال التوكل : الحق أن مَن وثق بالله ، وأيقن أن قضاءه عليه ماضٍ ، لم يقدح فى توكله تعاطيه الأسباب ؛ اتباعاً لسُنَّته وسُنَّة رسوله ، فقد ظاهر - صلى الله عليه وسلم - بين درعين ، ولبس على رأسه المغفر ، وأقعد الرماة على فم الشِّعب ، وخندق حول المدينة ، وأذن فى الهجرة إلى الحبشة ، وإلى المدينة ، وهاجر هو ، وتعاطى أسباب الأكل والشرب ، وادخر لأهله قوتهم ، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء ، وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك (١) .

ومَن قرأ سيرته عليه الصلاة والسلام ، وجد أنه كان يُعِد لكل أمر عُدَّته ، ويهيىء له أسبابه وأهبته ، آخذاً حذره ، مقدِّراً كافة الاحتمالات ، واضعاً ما أمكنه من الاحتياطات مع أنه كان أقوى المتوكلين على الله تعالى .

فهو حين أمر أصحابه - بعد أن اشتد إيذاء قريش لهم - بالهجرة إلى الحبشة ، لم يكن هذا الأمر اعتباطاً ، أو رمية من غير رامٍ ، بل كان نتيجة معرفة بالظروف الجغرافية ، والدينية والسياسية للحبشة فى ذلك الوقت .

فلم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أن يأمرهم بالهجرة إلى مكان مهماً بَعُد ، فى شبه جزيرة العرب ، فإن قريشاً - بما لها من نفوذ دينى وأدبى - تستطيع أن تلاحقهم .

ولم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أنْ يذهبوا إلى بلد تحت سيطرة الفُرْس أو الروم ، حيث يحكمها أباطرة لا يقبلون مثل هذه الدعوة الجديدة .

= « قيِّدها وتوكل » ، وإسناده - كما قال الزين العراقى : جيد - انظر : فيض القدير ص ٧ ، حديث رقم (١١٩١) ، وانظر الحديث وتخريجه فى « الإحسان » - الجزء الثانى - حديث رقم (٧٣١) ، طبع الرسالة .

(١) نقله الشوكانى فى نيل الأوطار : ٩/ ٩٢ ، طبع دار الجبل - بيروت .

ولم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أن يذهبوا بعيداً إلى بلاد مثل الهند والصين ، حيث تنقطع أخبارهم ، وتكون الهجرة مهلكة لهم .

ولقد كانت الحبشة هى المكان المناسب جغرافياً ، فهو ليس جدَّ بعيد ، ولا جد قريب ، بل بينه وبين قريش بحر .

وكانت الحبشة هى المكان المناسب دينياً ، فقد كانوا أهل كتاب من النصارى الذين يُعدّون أقرب مَوَدَّةً للمسلمين .

وكانت الحبشة هى المكان المناسب سياسيّاً ، فقد كان يحكمها رجل اشتهر بالعدل والنَّصَفَة ، ولهذا قال الرسول لأصحابه : [إن بها ملكاً أرجو ألا تُظلموا عنده] .

وهذا يدلنا على أن الرسول وأصحابه لم يكونوا فى عزلة عن العالَم من حولهم ، رغم صعوبة المواصلات بين الأقطار بعضها وبعض .

ويدل على ذلك أيضاً موقفهم من حرب الفُرْس والروم ، وما كان من جدل بين المسلمين والمشركين فى هذا ، مما نزلت فيه أوائل سورة الروم : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ (١) .

وهكذا . . فقد كانوا - وهم فى فجر الدعوة ورغم الضعف والاضطهاد - على صلة بالصراع العالمى بين الدولتين العظميين فى ذلك العصر ، أو المعسكرين الكبيرين : الشرقى والغربى .

وأوضح من ذلك موقفه صلى الله عليه وسلم فى هجرته إلى المدينة ، ففيها يتجلى التخطيط العلمى ، والتوكل الإيمانى جنباً إلى جنب .

فلقد أعدّ عليه الصلاة والسلام من جانبه كل ما يستطيع البَشر إعداده من الوسائل والاحتياطات والمعينات .

---

(١) الروم : ٢ - ٣

ولقد اطمأن إلى المهجر الذى سينتقل إليه ، بعد أن بايع المؤمنين من الأوس والخزرج بيعة العقبة الأولى والثانية ، واشترط لنفسه أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وذراريهم .

واطمأن إلى الرفيق الذى سيصحبه فى رحلته الجاهدة بما فيها من أخطار ، وما تحمله من مفاجآت ، ولم يكن هناك أفضل من أبى بكر رفيقاً .

واطمأن إلى الفدائى الذى سيبيت مكانه ، مُعرِّضاً نفسه لاحتمالات الخطر ، وغدرات المتربصين ، ولم يكن ثَمَّ أفضل من علىٍّ ابن عمه أبى طالب فارس الإسلام لهذه المهمة .

ورتب الدليل الخِرِّيت الذى يدله على الطريق ، وما فيه من منعطفات ومخابىء يمكن أن تضلل عنه أعين الطالبين ، فكان مشركاً أميناً ، هو عبد الله ابن أريقط . وهو ما أخذ منه الفقهاء جواز الاستعانة بالخبرة الفنية غير الإسلامية ، مع الاطمئنان والأمان .

وهيأ الرواحل التى سيمتطيها هو وصاحبه ودليله فى سفرهم الطويل ، واتفقوا على المكان والموعد الذى يستقلون به الركائب .

وتخيّر المخبأ الذى يختفى فيه أياماً معدودة ، حتى تخف حدة الطلب ، ويتملك القوم اليأس ، واختاره فى غير طريق المدينة ، زيادة فى التعمية على القوم فكان غار « ثور » .

وأعد فريق الخدمة الذى يأتى بالزاد ، والأنباء ، خلال أيام الاختفاء ، فكانت أسماء وعبد الله بن أبى بكر ، ومن بعدهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر ، يأتى بغنمه فيحلبون منها ، ويعفّى على آثار أسماء وعبد الله .

خطة محكمة الحلقات ، متقنة التدبير ، ولم تُترك فيها فجوة دون أن تُملأ ، ولا ثُغرة دون أن تُسد ، ووضع فيها كل جندى فى دوره المناسب

لظروفه وقدراته ، فدور أبى بكر ، غير دور علىّ ، غير دور أسماء ، وكل فى موقعه الصحيح .

ومع هذا الإحكام الدقيق ، كادت الخطة تخفق ، واستطاع المشركون أن يصلوا إلى الغار ، ويقفوا على بابه ، وكان يكفى لكشف الأمر وإفساد الخطة ، أن ينظر أحد القوم تحت قدميه ، فيرى الرسول وصاحبه فى الغار ، وهذا ما خشيه أبو بكر ، وصرّح به للرسول ﷺ حين قال : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، فقال له كلمته المؤمنة الواثقة : [ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما] ؟ ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ﴾ (١) .

وهنا تجلى دور « التوكل » الحق ، فبعد أن يبذل الإنسان ما فى وسعه ، ويتخذ من الأسباب والخطط ما يقدر عليه ، يدع ما لا يقدر عليه من مفاجآت القدر ، لله وحده . وهنا تقع ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ﴾ موقعها وتؤتى أُكلها (٢) .

* *

● واقعنا المرّ لا يمثل أصالة ولا معاصرة :

على أن واقعنا اليوم يؤكد أننا نعيش خارج عصرنا ، فلا نزال حتى الآن مستوردين لمنتجات الغرب ، نشترى أغلى الأجهزة وأفخر السيارات المشتملة على كل الكماليات - التى قد تُصنع لنا خاصة وبطلب منا - ونركب أحدث الطائرات ، ولكنَّا لا نصنع شيئاً من هذا كله . لم نصنع محركاً (موتور) لطيارة ولا سيارة ولو صغيرة . ولذلك لو كفّ الآخرون أيديهم عنا ، ما تحرَّك لنا مصنع ، ولا حلَّقت بنا طائرة ، ولا سارت بنا سيارة .

فى بعض بلاد الخليج توقفت الحياة فى نصف المدينة الكبيرة لأن إحدى

---

(١) التوبة : ٤٠

(٢) انظر كتابنا « الرسول والعلم » ص ٤٣ - ٤٨ ط.الرسالة والصحوة .

ماكينات الكهرباء الكبرى توقفت ، ولا يوجد مَن يصلحها ؛ لا بد من خبير من بلادها التى صنعتها ، ومن المصنع الذى صدَّرها !

التكنولوچيا لا تُشترى من الخارج ، وإنما تُصنع فى الداخل .

قلت فى عدد من كتبى ولا أزال أقول وأكرر : إن أمة « سورة الحديد » لم تتعلم بعدُ صناعة الحديد . فقد قال تعالى : ﴿ **وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ** ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ **فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ** ﴾ إشارة إلى الصناعات الحربية ، وقوله : ﴿ **وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ** ﴾ . إشارة إلى الصناعات المدنية . ونحن للأسف لم نتقن أيّاً منهما .

لقد صنع الغرب « الكومبيوتر » وطوَّر أجيالاً منه ، جيلاً بعد جيل ، حتى وصل اليوم إلى ما وصل إليه من مكنة وقدرة وسرعة ، مع صغر الحجم وقلة النفقات ، ولا يزال يبدع ويطوّر ويحسّن . ونحن العرب إلى اليوم مختلفون فى مجرد تسميته : أهو العقل الإلكترونى ، أم الدماغ الإلكترونى ، أم الحاسب الآلى ، أم الحسَّابة أم المحساب أم الحاسوب ؟؟!!

لقد ذكرت فى كتابى « الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والإسلامى » الشروط اللازمة للخروج من سجن التخلف ، والدخول فى عصر التكنولوچيا المتقدمة . وهى شروط بعضها يتعلق بالأصالة ، وبعضها يتعلق بالمعاصرة ، وبعضها يتعلق بكلتيهما .

ولا أود أن أعيد ما كتبته ، ولكن أنبه عليه للرجوع إليه فى موضعه ، إن كنا جادين حقاً ، أن ندخل العصر ، ونلحق بالركب ، ونسد الفجوة بيننا وبين عالَم اليوم .

---

(١) الحديد : ٢٥

إن الذى نحن فيه لا يمثّل أصالة ، ولا يمثّل معاصرة . إنه التيه والضياع .

إن أصالتنا الإسلامية والعربية لا يُتصور بحال أن تكون حائلاً بيننا وبين التقدم العلمى والتكنولوچى ، كما توهم كتابات بعض « المتطرفين » العلمانيين ، الذين يلهثون جاهدين للبحث عن نقطة ضعف فيما يكتبه بعض الإسلاميين . فإذا عثر على ذلك فى كتاب مغمور ، أو مقال فى صحيفة أو نحو ذلك ، طار به كل مطار ، واتخذ منه حُجَّة لتوهين الموقف الإسلامى كله .

لقد زعم مَن زعم مِن هؤلاء : أن الإسلاميين يعتمدون - فى بيان موقفهم من العلم - على فكرة الإعجاز العلمى فى القرآن ، ويتمحلون لذلك تمحلات كثيراً ما تكون متعسفة وممجوجة .

وتصوير الموقف الإسلامى بمثل هذا غير عادل ، وغير صحيح . فقد ذكرنا من الوجوه الموجبة لأخذ العلم المعاصر من أى وعاء كان ، ما فيه الكفاية . ونزيد على ذلك أن الإسلام يدعو إلى العلم بأكثر من أسلوب فى قرآنه وسُنَّته ، وينشىء « العقلية العلمية » التى ترفض الخرافات والأوهام والعواطف ، وتطالب بالنظر والتفكير والتدبر ، وتنكر التقليد والجمود على ما كان عليه الآباء ، أو السادة الكبراء ، وتحكّم البرهان والدليل فى كل شىء : الدليل المنطقى العقلى فى العقديات والعقليات ، ودليل المشاهدة فى الحسيات والتجريبيات ، والتوثيق النقلى فى المسموعات والمرويات .

وهذا ما فصّلناه فى كتبنا ، وأقمنا عليه الأدلة من كتاب الله تعالى ، ومن سُنَّة رسوله ﷺ (١) .

إن أصالتنا الإسلامية هى التى تهيىء لنا أفضل مناخ نفسى وعقلى ، يمكن

---

(١) انظر فى ذلك كتابنا « الرسول والعلم » ، فصل « الرسول والعلم التجريبى » ، واقرأ تحت عنوان « علمية لا علمانية » من كتابنا « الإسلام والعلمانية » .

أن تزدهر فيه نهضة علمية تكنولوچية راسخة ، يقوم عليها مجتمع يرى هذه النهضة عبادة وفريضة وضرورة . وهذا المناخ هو الذى ترعرعت فى ظلاله حضارتنا العربية الإسلامية ، التى مزجت بين الدين والدنيا ، وجمعت بين العلم والإيمان ، ووصلت الإبداع المادى بالسمو الروحى والخُلُقى .

وهذا ما يجب أن نحرص عليه حين نسعى للحصول على علم العصر وتكنولوچيا العصر : أن نربط ذلك بقيم الإيمان والدين والأخلاق ، حتى لا يكون العلم معول دمار ، بل أداة عمار ، وألا يعين الإنسان على عمارة دنياه بخراب آخرته ، وإشباع شهواته البهيمية ، بجوع روحه الإنسانية .

* * *

٣ - النظرة المستقبلية :

ومن مقتضيات المعاصرة ألا يستسلم الإنسان لظروف حاضره ، بل يتطلع دائماً إلى المستقبل . ومهما يضغط عليه الواقع بهمومه الآنيّة ، ومشكلاته اليومية ، وجراحه المستمرة فى النزيف ، فإنه يرنو إلى الغد ، ويستشرف للمستقبل ، يعدّ له العُدَّة ، ويأخذ له الحيطة ، محاولاً أن يسد ما يتوقع من ثُغرات ، وأن يعالج ما يطرأ من آفات ، وأن يغرس نواة اليوم لتصبح نخلة أو شجرة زيتون بعد سنوات ، وأن يفكر ماذا سيواجه الأبناء والأحفاد فى الأجيال القادمة ، وما الأخطار التى ترتقبهم ؟ والآمال التى يرتقبونها ؟ وهل فى الإمكان أن ندخر من يومنا لغدنا ، أو لغد ذرارينا من بعدنا ، وأن نقيهم بعض ما أصابنا من محن ؟ وما غشينا من فتن ؟ وما حلّ بنا من كوارث لم نأخذ لها الأهبة ؟

وهل يمكن للإنسان أن يطمح إلى مستقبل تغلب فيه الآمالُ يأسَ اليائسين ، وتجف فيه دموع البائسين ، وينتصر فيه الخير على الشر ، والعدل على الظلم ، والرخاء على الفقر ، والعلم على الجهل ، والتسامح على التعصب ؟

إن من سمات عصرنا التطلع إلى المستقبل ومحاولة استشفافه ، أو توقع

ما يمكن أن يحدث فيه ، لا عن طريق الكهانة والتنجيم ، بل عن طريق الدراسة والرصد ، وبناء النتائج على المقدمات ، والمسببات على الأسباب ، كما تفعل « الأرصاد الجوية » بالنسبة للرياح والأمطار والحرارة والبرودة .

يقول الدكتور المهدى المنجرة وهو أحد المهتمين البارزين من العرب بهذا اللون من الدراسة :

« إن الدراسات الاستقبالية تُعَد ظاهرة حديثة النشأة تعود إلى نهاية الحرب العالَمية الثانية ، وأول مَن باشرها مؤسسة « راند » بناء على طلب البنتاجون فى عام ١٩٤٧ ، ولم تشهد انطلاقتها الحقيقية إلا مع نهاية الستينات » .

وقد تتبع زكى نجيب محمود فى مقاله « المستقبل المحسوب » بدايات الاهتمام بهذه الدراسات منذ مطلع القرن العشرين . وتحدث قسطنطين زريق فى كتابه « نحن والمستقبل » عن هذا النمط العلمى الريادى المعاصر فى الاهتمام المستقبلى ، الذى يتميز بصفته العلمية ، وبتمسكه بالمنطق الاختبارى ، وبأنه جهد جَماعى رآه ينتسب إلى عالَمنا المعاصر .

ويعلق الدكتور أحمد صدقى الدجانى فى بحثه القيم : « دراسة المستقبل برؤية مؤمنة مسلمة » [1] بقوله :

واضح أن ظهور الدراسة المستقبلية بمعناها الحديث وثيق الصلة بثورة العلم التقنى التى تفجرت فى عالَمنا المعاصر هذا ، وأثمرت ثورة فى الاتصال وثورة فى المعلومات ، وأحدثت تحولات وتحولات . وقد أورد « هوج ستيوارت » فى كتابه « تذكّر المستقبل » تسعة تحولات تحدَّث عنها « چون نيبسبت » عام ١٩٨٢ ، وسماها توجهات عظمى « تحول من مجتمع صناعى إلى مجتمع معلوماتى ، انتقال من انقياد للتقنية إلى استجابة إنسانية لها ،

---

(١) نشرته مجلة « المسلم المعاصر » فى عددها الثانى والستين : نوفمبر ، ديسمبر سنة ١٩٩١ ، يناير سنة ١٩٩٢

انتقال من ضيق الاقتصاد القومى إلى شمول الاقتصاد العالَمى ، تحول من المركزية إلى اللامركزية ، تزايد الاعتماد على الذات فى مقابل الاعتماد على المؤسسات ، التحول من ديموقراطية الإنابة إلى ديموقراطية المشاركة ، تحول من نظام هرمى إلى نظام شبكى ، انتقال من مناطق صناعية إلى مجتمعات جديدة ، تحول من مجتمع خيارات محدودة إلى خيارات عديدة » .

ولما كانت ثورة العلم التقنى قد تفجرت فى الغرب ، فإن ظهور الدراسة المستقبلية بمعناها الحديث بدأ هناك . وقد أولتها عناية خاصة المؤسسات العسكرية والشركات متعددة الجنسيات عابرة القارات . وهكذا بدت الصلة وثيقة بين الدراسات المستقبلية والدراسات الاستراتيچية .

كان طبيعيّاً أن يجرى بحث عن اسم يُطلق على هذه الدراسة المستقبلية التى ظهرت بمعناها الحديث ، وأن يجتهد المشتغلون بها فيطلقوا عليها هذا الاسم أو ذاك ؛ وهكذا ظهر اسم « المستقبلية » ، ولم يلبث « جاستون بيرجر » الفرنسى أن سماها عام ١٩٦٠ « علم الريادة » . ثم استخدم « أوسيب فليشتم » الألماني عام ١٩٦٦ اسم « علم المستقبل » فى كتابه « علم التاريخ وعلم المستقبل » ، وهناك مَن سماها « علم حساب المستقبل » .

وإن كان الدكتور الدجانى يتحفظ على اعتبار ذلك علماً ، بل يراه استشرافاً وتشوفاً ورؤية ؛ فهل يتسع صدر الإسلام - عقيدة وشريعة وفكراً - لهذا النوع من التوجه المستقبلى ؟ أو يضيق به ويغلق الباب دونه ؟

إن كثيراً ممن لم يتعمقوا فى فهم الإسلام يحسبون أن الدين عامة - والإسلام خاصة - لا يرحب بالنظرة المستقبلية ، التى تستوجب استشراف الغد ، والتخطيط له ، والإعداد لما عسى أن تتمخض عنه الليالى والأيام .

وذلك لأن الدين - فى نظرهم - يربط الإنسان بماضيه وتراثه ، الذى غالباً ما يُنظر إليه نظرة فيها لون من « التقديس » ، الذى يحيله إلى « قفص » يحول دون حركته وانطلاقه ، وإن كان فى نظره قفصاً من ذهب ! أما المستقبل

فهو بيد الله ، وهو غيب لا يعلمه إلا الله . ولا دخل للإنسان فى توجيهه . وإنما يفرضه عليه القدر الأعلى من فوق ، دون أن يكون له كسب أو اختيار .

هكذا يفكر بعض المتدينين ، وخصوصاً العوام ، وأشباه العوام . وأقصد بأشباه العوام كثيراً من الجامعيين ، وكبار المتعلمين ، الذين لا يتميزون كثيراً فى أفكارهم الدينية عن العوام والأميين ، وإن كانوا فى تخصصاتهم من المرموقين ، الذين قد يُشار إليهم بالبنان !

وهذا اللون من التفكير هو الذى يعتمد عليه جماعة العلمانيين فى تصوير النظرة الإسلامية للمستقبل .

ومَن أراد أن يعرف النظرة الإسلامية للمستقبل فليعرفها من القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية . كما أوجزتُ بيان ذلك فى بعض كتبى (١) .

* *

● القرآن الكريم والمستقبل :

فالمتدبر للقرآن الكريم يجده منذ العهد المكى يوجه أنظار المسلمين إلى الغد المأمول ، والمستقبل المرتجى ، ويبيِّن لهم أن الفلك يتحرك ، والعالَم يتغير ، والأحوال تتحول ، فالمهزوم قد ينتصر ، والمنتصر قد يُهزم ، والضعيف قد يقوى ، والدوائر تدور ، سواء أكان ذلك على المستوى المحلى أم العالمى .

وعلى المسلمين أن يهيئوا أنفسهم ، ويرتبوا بيتهم لما يتمخض عنه الغد القريب أو البعيد ، فكل آتٍ قريب .

نقرأ سورة « القمر » المكيِّة ، فنجد فيها قول الله تعالى عن المشركين ،

---

(١) أولويات الحركة الإسلامية ص ١٢١ - ١٢٤ ، طبع الرسالة .

وهم أولو القوة والشَوْكة ، والعدد والعُدَّة : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ (١) .

ذكر ابن كثير فى تفسيره عن ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : لما نزلت ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ قال عمر : أىّ جمع يُهْزَم ؟ أىّ جمع يُغْلَب ؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع ، وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ فعرفت تأويلها يومئذ (٢) .

وروى البخارى عن عائشة قالت : نزل على محمد ﷺ بمكة ، وإنى لجارية ألعب : ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ (٣) .

فكان المقصود بهذه الآية وأمثالها تهيئة الذهنية المسلمة ، والنفسية المسلمة ، للتغير الحتمى ، والغد المرتقب .

وعلى المستوى العالَمى نجد آيات الكتاب العزيز تتحدث عن ذلك الصراع ، التاريخى بين الدولتين العُظميين : فارس والروم - وقد كان صراعاً اهتم له الفريقان فى مكة : المسلمون والمشركون - فتبشر الآيات الجماعة المؤمنة بأن المستقبل للروم من أهل الكتاب ، على الفُرْس المجوس عُبَّاد النار ، وأنهم - وإن غُلبوا اليوم - سيَغلبون فى بضع سنين ، وفى هذا تقول السورة جازمة : ﴿ آلم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَ ، لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ ، يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤) .

هذه الآيات الكريمة من كتاب الله تعالى تدلنا على أمرين :

١ - مدى وعى المجموعة المسلمة - على قِلّتها وضعفها المادى -

---

(١) القمر : ٤٥ - ٤٦ (٢) تفسير ابن كثير : ٤/٢٦٦ ، طبع الحلبى .

(٣) المصدر السابق . (٤) الروم : ١ - ٥

بأحداث العالَم الكبرى ، وصراع العمالقة من حولها ، وأثره عليها إيجاباً وسلباً .

٢ - تسجيل القرآن لهذه الأحداث ، وتوجيه النظر إلى عوامل التغير ، والانتقال من الواقع إلى المتوقع فى ضوء السنن .

وفى سورة المزمّل المكيّة نقرأ الآية الأخيرة من السورة التى تتضمن تخفيف الله عن نبيه ﷺ ومَن معه فى قيام الليل وقراءة القرآن ، لما ينتظرهم من مهام جسيمة فى المستقبل ، فسيواجهون أعداء يقاتلونهم ويصدونهم عن سبيل الله ، فليوفروا بعض قوتهم لهذا اللقاء المفروض عليهم .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ، وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ، عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ (١) .

وفى القرآن آيات كثيرة تتحدث عن المستقبل ، حاملة البُشرى والأمل للأمة بظهور الدين ، والتمكين له ، واستخلاف أهله فى الأرض ، وبروز آيات الله فى الآفاق وفى الأنفس حتى يتبين الحق .

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (٢) .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ (٣) .

---

(١) المزمل : ٢٠ (٢) التوبة : ٣٣ ، والفتح : ٢٨ ، والصف : ٩

(٣) النور : ٥٥

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ (١) .

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (٢) .

* *

● **الرسول والمستقبل :**

وفى السُنَّة النبوية أحاديث جمَّة تتحدث عن المستقبل كذلك ، وهى التى تُذكر عادة فى أبواب « الفتن » و « الملاحم » ، و « أشراط الساعة » .

والانطباع العام عند كثيرين عن هذه الأحاديث أنها توحى بالتشاؤم واليأس من المستقبل ، وانتصار الشر على الخير ، والضلال على الهدى . وهو انطباع لا يقوم على استقصاء هذه الأحاديث وتأملها ، وموازنة بعضها ببعض ، كما أنه يغفل « المبشرات » التى تحدثت عن انتصار الإسلام وانتشار دعوته ، واتساع دولته ، وعودة خلافته ، وهى جملة من الأحاديث الصحاح .

والقارىء المتأمل لسيرة رسول الله ﷺ يتبين له أنه لم يكن غافلاً عن مستقبل دعوته ، بل كان يفكر فيه ، ويخطط له ، فى حدود ما هيأ الله له من فرص ، وما آتاه من أدوات وأسباب .

ويكفى أن نقرأ عن جهده ونشاطه صلى الله عليه وسلم فى مواسم الحج التى تجمع ممثلين من جميع قبائل العرب ، وكيف كان عليه الصلاة والسلام يعرض دعوته عليهم ، ويطلب نصرتهم ، ويعدهم بوراثة ممالك كسرى وقيصر ، ليُعلم إلى أى أفق كان يرنو بصره صلى الله عليه وسلم .

وكان الرسول الكريم - وهو فى مكة وأتباعه قليل مستضعفون فى الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس - مؤمناً بمبدأين أساسيين :

الأول : أن هذا الواقع لا بد أن يزول ، لأنه يحمل عوامل زواله ، وأن

---

(١) النمل : ٩٣ (٢) فصلت : ٥٣

البديل له هو الإسلام ، وأن ليل الجاهلية الحالك والجائم سيعقبه فجر صادق ، وما على المؤمنين إلا أن يصمدوا ويصبروا ولا يستعجلوا الثمرة قبل إبّانها .

لما اشتد الأذى بالصحابة فى مكة - وخصوصاً المستضعفين منهم - جاء خبّاب بن الأرت إلى رسول الله ﷺ يشكو إليه ويستنجد به ، وهو متوسد رداءه فى ظل الكعبة . فقال بلسانه ولسان المعذَّبين من أمثاله : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : [قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيُحفر له فى الأرض فيُجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيُجعل نصفين ! ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ، ما يصده ذلك عن دينه ! والله ليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون] (١) .

يؤيد ذلك ما قاله عليه الصلاة والسلام لسراقة بن مالك فى رحلة الهجرة ، وهو مطارَد مباح الدم : [كيف بك إذا ألبسك الله سوارى كسرىٰ] ؟

وتبشيره لأصحابه بفتح فارس والروم ، وهو محاصَر يحفر الخندق !

الثانى : أن هذا المستقبل المنشود إنما يتحقق وفق سنن الله فى رعاية الأسباب ، وإعداد المستطاع من العُدَّة ، وإزاحة العوائق من الطريق ، وترك ما عدا ذلك للإرادة الإلَهية ، فما يعجز عنه البَشر لا تعجز عنه القدرة المطلقة (٢) .

* *

● الخلفاء الراشدون والمستقبل :

ومَن تأمل فى سيرة الصحابة ، وخصوصاً الخلفاء الراشدين ، استبان له من وقائع شتّى اهتمامهم بالمستقبل وتفكيرهم فيه ، واحتياطهم له .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) راجع ما ذكرناه عن التخطيط للهجرة فى حديثنا عن « عصر العلم والتكنولوچيا » .

وهذا ما حفزهم إلى جمع القرآن فى عهد أبى بكر رضى الله عنه ، لـمَّا استحرّ القتل بالقرَّاء فى معركة اليمامة من حروب الرِدّة ، حتى قيل إن سبعمائة منهم قد استُشْهِدوا فى ذلك اليوم ، فأشار عمر على أبى بكر بذلك الجمع ، مخافة أن يموت أشياخ القُرَّاء ، كأُبَىّ وابن مسعود وزيد بن ثابت . وتردد أبو بكر فى أول الأمر ، ثم شرح الله صدره لتنفيذ ما اقترحه عمر ، رضى الله عنهما . وتم تكليف زيد بن ثابت بالقيام بهذا الأمر . وكان من توفيق الله تعالى ، ومن أسباب حفظ القرآن وصيانته مما أصاب الكتب السماوية السابقة . تحقيقاً لوعد الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) .

ونحو ذلك ما فعله الخليفة الثالث عثمان رضى الله عنه فى جمع الناس على مصحف واحد ، يُقرأ بحرف واحد ، وإلغاء كل المصاحف الشخصية التى كتبها بعض الصحابة مشتملة على تعليقات وتفسيرات .

وإنما فعل عثمان ذلك ، لأن الناس اختلفوا فى القراءات ، بسبب تفرق الصحابة فى البلدان ، واشتد الأمر فى ذلك ، وعظم اختلافهم وتشبثهم ، ووقع بين أهل الشام والعراق ما ذكره حذيفة بن اليمان حين اجتمعوا فى غزوة أرمينية ، فقرأت كل طائفة بما رُوى لها ، فاختلفوا وتنازعوا ، وأظهر بعضهم إكفار بعض ، والبراءة منه ، فأشفق حذيفة مما رأى منهم ، فلما قدم إلى المدينة دخل إلى عثمان قبل أن يدخل إلى بيته ، فقال : أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك ! قال : فى ماذا ؟ قال : فى كتاب الله . ووصف له ما رأى وما سمع ، وقال : إنى أخشى عليهم أن يختلفوا كما اختلف اليهود والنصارى ! وقد شاور عثمان الصحابة بما فيهم علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . فوافقوا

---

(١) الحجر : ٩

على رأيه فى أن يجتمع الناس على قراءة فإنهم إذا اختلفوا اليوم كان مَنْ بعدهم أشد اختلافاً [1] .

ومن أبرز دلائل الفكر المستقبلى عند الصحابة : موقف عمر من سواد العراق بعد فتحه ، ورفضه تقسيمه على الفاتحين ، وفقاً لما فهمه أكثرهم من آية سورة الأنفال : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ .. ﴾ [2] .

وتوقف عمر ومعه من فقهاء الصحابة أمثال علىّ ومعاذ ، وكان تفكير عمر فى الأمر منصبّاً على المستقبل ، مستقبل الأجيال المسلمة التى ينتظر أن تطرق أبواب الحياة : ماذا يبقى لتحقيق مطالبها وسد حاجاتها ، إذا استولى هذا الجيل المحظوظ على تلك الغنائم الهائلة ؟ وجيوش المسلمين وثغورهم ومصالحهم العامة ، من أين يُنفق عليها فى المستقبل .

لقد قال عمر بصراحة للصحابة المطالبين بالتوزيع : أتريدون أن يأتى آخر الناس ، وليس لهم شىء ؟!

ولهذا رأى هو ومَن معه من الصحابة وقف رقبة الأرض لصالح أجيال الأمة ، على أن تبقى فى يد أربابها ، ويُفرض عليها خراج مناسب لمصلحة بيت المال أو الخزانة الإسلامية العامة . وعلّل عمر ذلك بقوله : إنى أردت أمراً يسع أول الناس وآخرهم . وكذلك قال معاذ [3] .

وأعانه على إقناعهم ما فهمه من آيات توزيع الفىء فى سورة الحشر ، حيث أشركت فيه الجيل الحاضر من المهاجرين والأنصار ، ثم ألحقت بهم :

---

(١) انظر : تفسير القرطبى : ١/ ٤٤ ، ٤٥ ، المقدمة .

(٢) الأنفال : ٤١

(٣) انظر : الخراج لأبى يوسف ص ٢٣ ، ٢٤ ، طبع السلفية ، والأموال لأبى عبيد ص ٥٨ ، ٥٩ ، وانظر : كتابنا « فقه الزكاة » : ١/ ٤٠٩ ، ٤١٠ ، نشر مكتبة وهبة .

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ﴾ (١) .

وبهذا بيَّن عمر ومَن معه أن الأمة متكافلة فى سائر أزمانها ، كما هى متكافلة فى سائر أقطارها ، تكافل زمانى ، وتكافل مكانى ؛ لا يجوز لجيل أن يأكل وحده حق الأجيال اللاحقة .

* * *

● أصناف الناس أمام الماضى والمستقبل :

والناس أمام الماضى والمستقبل - أو التراث والعصر - ثلاثة أصناف : طرفان وواسطة :

١ - الموغلون فى الماضوية :

الصنف الأول : ماضويّون تراثيون موغلون فى الماضوية ، لا يكادون يرنون إلى الأمام ، أو المستقبل ، أو يتعمّقون فى الحاضر ، فهم مشدودون أبداً إلى الخلف ، سجنوا أنفسهم داخل قضبان التراث ، ولا يتصورون العيش فى الحاضر أو المستقبل ، إلا باجترار التراث كله ، بجزئياته وتفاصيله ، وخصوصاً فيما يتعلق بالتشريع والتوجيه والسلوك . وهم ينسبون موقفهم إلى الدين !

من سمات هؤلاء :

(أ) أنهم يضفون لوناً من القداسة على التراث ، فهو حق كله ، خير كله ، صواب كله ، مع أن الدراسة المنصفة للتراث تؤكد أنه لايخلو من الباطل فى الاعتقادات ، والشرور فى الأفعال ، والخطأ فى الآراء والأقوال .

---

(١) الحشر : ١٠

وقد كان فى عصر النبوة منافقون حدّثنا عنهم القرآن فى عدد من سوره ، وكان فيه مَن أقيم عليه الحدّ ، ومَن ذمّه الله ورسوله .

وكان فى عصر الصحابة من الفتن ما هو معلوم ، وإن كنا لا نجحد فضل هذا العصر فى عمومه وجملته .

(ب) وهم يسرفون فى ردّ كل جديد إلى قديم من التراث ، وإن لم يقم على ذلك برهان ، فنظرية « التطوّر » توجد عند علماء المسلمين ، مع الاختلاف البيّن بين ما ذهب إليه المسلمون ، وما ذهب إليه « دارون » ومَن تبعه . والطب الحديث يوجد عند الرازى وابن سينا ، وعلم الاجتماع المعاصر لا يخرج عن ابن خلدون ، إلى غير ذلك من المبالغات التى يدفع إليها حماسٌ يضيع الحقائق .

ونحو هذا مَن يتمحّل لرد النظريات العلمية الحديثة إلى آيات من القرآن الكريم ، مع أن القرآن الكريم فى غنى عن هذا التمحّل .

(جـ) وهم يعتبرون كل زمن شرّاً مما قبله ، إلى أن تقوم الساعة ، بناءً على ما فهموه من ظواهر بعض الأحاديث ، التى يفهمونها فهماً حرفيّاً ، رغم مخالفتها لنصوص أخرى ، وللواقع التاريخى أيضاً [1] .

(د) ومنهم مَن يتعلق بالصورة والشكل عند السَلَف ، لا بالروح والجوهر ، وبأعمال الجوارح لا بأعمال القلوب ، وبالآداب الظاهرة ، لا بالعبادات الباطنة ، فأكبر همّه تقصير الثوب ، وإطالة اللحية ، وعدم الأخذ منها ، وإحفاء الشارب ، والأكل باليد ، لا بالملعقة والشوكة ، والأخذ بالأقوال الجزئية للسَلَف ، لا بمنهج الاجتهاد والتفكير عندهم .

وهؤلاء قِلَّة قليلة ، وإن كان لهم وجود فى الساحة العربية والإسلامية ،

---

(١) مثل حديث : [لا يأتى عليكم زمان إلا والذى بعده شر منه] . انظر : تعليقنا على هذا الحديث فى كتابى « كيف نتعامل مع السُنَّة النبوية » ص ٨٧ - ٩٠

وآفتهم قصور فهمهم للدين وللعصر جميعاً ، فقد جمدوا عند أفكار معيّنة فى الدين ، وأقوال محدَّدة فى التراث ، انتهت بهم إلى الوقوف عند صورة الدين لا حقيقته ، وشكله لا جوهره ، وتمسكوا بظواهر النصوص وحرفيتها ، لا بمقاصدها وأهدافها .

حتى سألنى بعض الطلاب والطالبات فى جامعة قطر عن أناس ينتقلون من جنوب قطر إلى شمالها ، للدعوة وتبليغ رسالة الإسلام إلى الناس ، ولكنهم أبوا إلا أن يذهبوا مشياً على أقدامهم ، وأمتعتهم على ظهر جمل يصحبونه فى رحلتهم ، ولما سئلوا : لماذا لم تركبوا السيارات وهى متاحة ؟ قالوا : نحن نتبع السُنَّة فى الدعوة !!

هل هذا متصور ؟!

وهذا يذكرنى بما حكاه لى بعض الإخوة فى بعض البلاد العربية أن داعية من هذا النوع وقف يوماً يقول : الحمد لله الذى سخّر لنا الكفار من الإفرنج وغيرهم ، يقدّمون لنا العلم والتكنولوچيا لنتفرّغ نحن لعبادة الله تعالى وطاعته !!

وجهل المسكين أن تخلّفنا فى مضمار العلم والتكنولوچيا ، يعتبر جريمة فى نظر الإسلام ، لأننا لم نعدّ ما استطعنا من قوّة ، ولم نقم بحقّ فرض الكفاية ، فى إتقان كل علم به قوام الدين أو الدنيا ، كما قرر علماؤنا من قبل ، وغدونا فى كثير من الأمور عالة على غيرنا من هؤلاء « الكفار » ! فأضعنا واجبات كثيرة ، لأنَّا أضعنا وسائلها ومقدّماتها اللازمة لها ، والتى قال فيها علماؤنا : « ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب » .

إن هذا الصنف من « الماضويين » أو « التراثيين » غائبون عن العصر وإنجازاته وتياراته ، وكأنما خرجوا لتوّهم من مقابر دفنوا فيها منذ خمسة قرون ، مع أن بعضهم قد يكون خريجاً فى أحدث الجامعات العصرية ، وربما كان

مهندساً أو طبيباً ، أو صيدليّاً ، أو محاسباً ، أو محامياً ، أو غير ذلك مما تفرزه جامعات عصرنا فهو عصرى الشهادة ، ماضوى الفكر .

* *

٢ - المغرقون فى المستقبلية :

الصنف الثانى : مستقبليّون مغرقون فى المستقبليّة ، لا يكادون يلتفتون إلى الوراء ، إنّما ينظرون أبداً إلى الأمام . يرون أن الإنسان يتطوّر دائماً إلى ما هو أحسن وأمثل ، فلماذا العودة إلى الخلف ، أى إلى الماضى أو التراث ، أو التاريخ ؟

نحن أبناء اليوم والغد ، لا أبناء الأمس . فلماذا التشبث بالأمس ، واعتباره أفضل من اليوم ؟ ولماذا التمسك بالتراث إلى حدّ التقديس ؟

أهمّ ما لدى الإنسان عند هؤلاء هو المخيِّلة ، إذ كان أهمّ ما فى الإنسان عند الأولين هو الذاكرة .

كأنما يريدون أن يلغوا الماضى من الزمن ، و(أمس) من اللغة ، والفعل الماضى من الكلام ، ويحذفوا الوراء من الجهة ، والذاكرة من الإنسان .

التراث عندهم متّهم ، والماضى لديهم مبغّض ، والسَلَف فى نظرهم مجرّحون ، وتاريخ الأمة ظلمات بعضها فوق بعض .

هم مع التراث كما الشاعر فى جيرانٍ سوء له :

إن يسمعوا الخير أخفَوْهُ ، وإن سمعوا

شرّاً أذاعوا ، وإن لم يسمعوا كذبوا !

ما فى هذا التاريخ أو هذا التراث من حسنات وإنجازات علميّة وحضارية وأخلاقية ، منسىٌّ أو مسكوت عنه ، وما فيه من فتن وانحرافات ، لا يخلو

منها تاريخ بَشر ، ينظرون إليه من خلال « مكروسكوب » يضخّم الصغير حتى يجعله كبيراً .

لقد رأينا مِن هؤلاء مَن يهاجم « السَلَف الصالح » ويتّهم الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، بتخريب الدولة الإسلامية ، لجهله بشئون الإدارة والسياسة ! (١) .

رأينا من هؤلاء مَن سخر مِن كل مَن يكشف عن إنجاز علمى أو حضارى حقيقى - غير متمحّل - سبق به العرب والمسلمون ، ومَن يردد مع المستشرقين المتحاملين : أن المسلمين لم يكن لهم فضل ولا أصالة فى علم ولا عمل ولا فنّ ولا أدب .

فعلومهم وفلسفتهم منقولة عن اليونان ، وفقههم متأثر بتشريع الرومان ، ونظمهم مقتبسة من الفُرْس ، وحضارتهم خليط مركّب مأخوذ من الأمم السابقة .

والإسلام - بعقيدته وشريعته وأخلاقه - محسوب على هذا الماضى ، أو هذا التراث ، فهو لا يصلح لهذا العصر ، وليس كما يقول المشايخ والدعاة : إنه صالح لكل زمان ومكان . وكيف تصحّ هذه المقولة مع تغير الزمان ، واختلاف المكان ، وتطوّر الحياة والإنسان ؟

على الإسلام أن يخلى مكانه لأفكار العصر و« أيديولوچيّات » العصر ، وإن كان لا بدّ من بقائه ، فعليه أن يبقى محصوراً فى حنايا الضمائر ، بوصفه علاقة بين الإنسان وربّه ، فإن سُمِح له بالخروج منها ، فليكن فى حدود دور العبادة « الموجّهة » التى لا تتدخل فى أمور الحياة ، وسياسة الأمة ، إذ لا سياسة فى الدين ، ولا دين فى السياسة !

---

(١) هذا ما كتبه حسين أحمد أمين فى بعض الصحف القاهرية ، انظر : ردنا عليه فى كتابنا « فتاوى معاصرة » : ٢/ ٧١٥ - ٧٢٤ ، تحت عنوان : خامس الراشدين عمر ابن عبد العزيز هل كان جاهلاً بالسياسة ؟

ومِن هؤلاء مَن يسمح للإسلام بدخول العصر ، بشرط أن تُعاد قراءته ، ويُعاد تفسيره من جديد ، دون تمييز بين الثوابت والمتغيرات ، أو بين منطقة القطعيّات ومنطقة الظنيّات . فهم يرون أن « يتعصرن » الإسلام ، لا أن يسلم العصر ، ويطالبون الإسلام أن يتطوّر ، ولا يطالبون التطوّر أن يسلم .

* *

٣ - دعاة الوسطية :

والصنف الثالث : هم الذين سلموا من إفراط الأوّلين وتفريط الآخرين ، وهداهم الله إلى الموقف الوسط ، وهم الذين قال فيهم الإمام علىّ كرَّم الله وجهه : « عليكم بالنمط الأوسط الذى يلحق به التالى ، ويرجع إليه الغالى » .

إنهم يجتهدون أن يقيموا الموازين القسط بين عناصر الزمن كله : الماضى والحاضر والمستقبل ، فهم يعتبرون بالماضى ، ويعايشون الحاضر ، ويستشرفون المستقبل .

يُفرِّقون بين الإسلام والتراث ، فالإسلام كلمة الله العليا ، وأمره الذى لا يُعصى ، والتراث صنع البَشر ، ونتاج عقولهم وإرادتهم ، حتى التراث الدينى نفسه ، هو عمل العقل الإسلامى .

يعلمون أن من الخطأ البيِّن : اعتبار الإسلام ماضياً ، فالإسلام هو الماضى والحاضر والمستقبل جميعاً .

إنهم لا يرفضون القديم لمجرد قدمه ، ولا يعشقون الحديث لمجرد حداثته ؛ بل يستمسكون بكل قديم نافع ، ويرحبون بكل حديث صالح .

إنهم ينكرون على الفريق الأول جمودهم على كل قديم ، وعلى الفريق الآخر انفتاحهم على كل حديث . وفى كل من القديم والحديث خير وشر ، وصواب وخطأ ، وصلاح وفساد . والموقف المقبول شرعاً وعقلاً هو القصد

إلى اجتناب الشر والخطأ والفساد ، وتحرى الوصول إلى الخير والصواب والصلاح ، بغضّ النظر عن قِدَمِ ذلك أو حداثته .

ثم إن القِدَم والحداثة أمران نسبيان ، فرُبَّ حديث عند قوم يُعتبر أمراً قديماً كل القدم عند غيرهم ، على أن الحديث لا يبقى حديثاً أبد الدهر ، فقديم اليوم كان حديث الأمس ، وحديث اليوم سيصبح قديم الغد .

وقد كان من قبلنا - على عكس السائد اليوم - يعظّمون القديم ، ولا يحتفلون بالحديث ، ويرون الأقدمين أعلى مكانة من المحدَثين ، والأوائل أفضل أبداً من الأواخر . فقال أحد الشعراء ناقداً هذا التوجه [1] :

قل لمن لا يرى المعاصر شيئاً ... ويـــرى للأوائـــل التقديمـا

إن هـذا القديم كـان حديثـاً ... وسيمسى هذا الحديث قديماً

إن هذا الفريق من دعاة الوسطية يرحبون بالتطور والتجديد فى الحياة والمجتمع ، بل فى الدين نفسه ، الذى نوّه رسوله بـ « المجددين » فيه ، الذين يبعثهم الله فى كل قرن لهذه الأمة : [ليجددوا لها دينها] [2] .

فهم يقامون الجمود البليد ، ويحاربون التقليد ، ويدعون إلى الاجتهاد ، ويؤمنون بتطور العلم والفكر . إنهم يؤمنون أن الثبات والتغير ظاهرتان متجاورتان من ظواهر الكون والحياة والإنسان . فكل منها فيه الثابت والمتغير ، وإن كان الملاحظ أن الجوهر ثابت ، والأعراض هى المتغيرة أبداً .

كما أنهم يعلمون أن التطور أو التغير ليس دائماً إلى الأحسن والأمثل ، فكثيراً ما يكون من حسن إلى سيئ ، ومن سيئ إلى أسوأ . وهذا ما يشهد به

---

(١) انظر : مقدمة تاج العروس فى شرح القاموس للزبيدى .

(٢) إشارة إلى الحديث الذى رواه أبو داود فى سننه والحاكم فى مستدركه ، والبيهقى فى معرفة السنن عن أبى هريرة وصححه غير واحد . انظر : بحثنا حول هذا الحديث فى كتابنا « من أجل صحوة راشدة » فصل : « تجديد الدين فى ضوء السُّنَّة » .

التاريخ ، وما يصدقه الواقع . فالتطور لا يقتصر على الجانب العلمى والمعرفى ، الذى يتقدم باستمرار ، بل يشمل جوانب الإيمان والقيم والسلوك أيضاً .

لهذا يرحبون بالتطور إذا كان ارتقاء إلى ما هو أفضل ، وينكرونه إذا كان فى جهة الهبوط والانحدار .

كما أنهم يميزون بين الثوابت والمتغيرات ، بين ما يقبل التجديد والاجتهاد والتطور وما لا يقبله .

فهم يدعون إلى الثبات فى المقاصد والغايات ، وإلى المرونة والتطور فى الوسائل والآلات .

الثبات فى الأصول والكليات ، والمرونة والتطور فى الفروع والجزئيات .

الثبات فى دائرة القطعيات والمحكمات ، والمرونة والتطور فى محيط الظنّيات والمتشابهات .

الثبات فى حقائق الدين ، والمرونة والتطور فى أمور الدنيا [1] .

هذا الفريق من دعاة الوسطية الإسلامية يؤمنون بالعقيدة أساساً ، وبالعقل نبراساً ، وبالشريعة منهاجاً ، وبالأخلاق سياجاً ، وبالاجتهاد مذهباً ، وبالتجديد مشرباً ، وبالعلم مركباً ، وبالانفتاح على العالَم دون ذوبان ، وبالتمسك بالأصول دون جمود على كل ما كان .

يؤمنون بما نقله العلاّمة ابن عبد البر النمرى : ليس هناك كلمة أضرّ بالعلم والعلماء من قول القائل : « ما ترك الأول للآخر شيئاً » ! [2] ، فكم ترك

---

(١) انظر : فصل « الجمع بين الثبات والمرونة » من كتابنا « الخصائص العامة للإسلام » .

(٢) انظر : جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر : ١/ ٩٩ ، طبع المنيرية .

الأول للآخر ، وكم فى الإمكان أبدع مما كان . وهو ما شهدت به العصور والأزمان . ويرددون معه قوله : « وليس هناك كلمة أحضّ على طلب العلم من قول الإمام علىّ كرَّم الله وجهه فى خطبة خطبها : واعلموا أن الناس أبناء ما يحسنون ، وقيمة كل امرىء ما يحسنه » [١] .

ولئن قيل ذلك فى شأن الفرد ، إنه ليصدق فى شأن الأمم . فقيمة كل أمة ما تحسنه . فليس المهم أن تعمل ، لكن المهم أن تحسن إذا عملت ؛ فإن الله كتب الإحسان على كل شىء .

إن تيار الوسطية لا يغفل المستقبل كما لا ينسى الماضى . وفى مكتبة الإسلاميين اليوم أكثر من كتاب يتحدث عن المستقبل من منظور الإسلام [٢] .

وقد أقام بعض الإسلاميين مركزاً لدراسات المستقبل الإسلامى مقره « لندن » . وهو الذى أقام ندوته الشهيرة فى الجزائر (سنة ١٩٩٠) عن قضايا المستقبل الإسلامى .

وهذا التقسيم الثلاثى واقعى ومنطقى ، وترجيح فريق الوسط هو الذى يدعو إليه العقلاء ، أيّاً كانت ثقافتهم . ولا بأس أن أستعير هنا كلمات الفيلسوف الأديب الدكتور زكى نجيب محمود فى التعبير عن هذا المعنى ذاته فى كتابه « ثقافتنا فى مواجهة العصر » قال : إن الثقافة العربية الحديثة إذ واجهت العصر بمقولاتها ، لم تجد مقولاتها تلك مُعَدَّة كل الإعداد لتلقّى مادة العصر ، فانقسم رجال الثقافة عندنا ثلاثة مذاهب :

---

(١) انظر : جامع بيان العلم وفضله نفس الجزء والصفحة .

(٢) مثل كتاب الشيخ محمد الغزالى عن « مستقبل الدعوة الإسلامية فى القرن الخامس عشر الهجرى » ، وكتاب د . محمد عمارة « الإسلام والمستقبل » ، وكتاب د . الدجانى عن « المستقبل برؤية مؤمنة مسلمة » ، وكتابنا « أولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة » وغيرها .

مذهب وجد الصيد نافراً من القفص ، لكنه لم يزل به حتى طوّعه بعض التطويع فاستكان له ولو إلى حين ، وفى رحاب هذا المذهب تقع الكثرة الغالبة من أعلام الأدب والفكر فى تاريخنا الحديث : محمد عبده ، والعقاد ، وطه حسين ، وتوفيق الحكيم وغيرهم ، فهؤلاء جميعاً - على اختلاف نزعاتهم وأذواقهم - لم يرفضوا العصر ، لكنهم حاولوا أن يصوغوه فى قوالب الثقافة العربية الأصيلة ، مع تفاوت بينهم فى درجة النجاح ، ومع هؤلاء القادة يذهب معظم المثقفين .

ومذهب آخر وجد الصيد نافراً من القفص فاستغنى عن الصيد ، واحتفظ بالقفص يضع فيه من كائناته المألوفة ما يجده حاضراً بين يديه ، وفى هذا المذهب تقع جماعة لا حصر لعددها ممن ملأوا أوعيتهم من كتب التراث ، وغضوا أنظارهم غضّاً عن العصر بكل ما يضطرب به من قضايا ومشكلات فكرية ، ومع هذه الجماعة تذهب عامة الناس من غير المثقفين .

ومذهب ثالث وجد الصيد نافراً من القفص فحطم القفص ، وجرى مع الصيد حيث جرى ، وهؤلاء قِلَّة قليلة لا تجد بأساً فى أن نمحو صفحتنا محواً ، لنملأها بثقافة العصر وحده كما هى معروفة فى مصادرها ، بغير تحريف ولا تعديل .

فمن ذلك ترى جماعتين من الجماعات الثلاث ، هما اللتان تصدّتا للعصر : إحداهما بتعديله ليلائم قالبنا الموروث ، والأخرى بغير تعديل فيه ، ملقية فى اليمّ القالب الموروث . وأما الجماعة الثالثة ، فقد لاذت بالهروب فى حصونها ، فلا مواجهة بينها وبين العصر ، ومن ثَمَّ فلنا أن نسقطها من حسابنا ، برغم كثرة عددها ، وبرغم أنها هى التى ظفرت بتأييد الجماهير .

وكذلك نستطيع أن نسقط من حسابنا - فى موضوعنا هذا - تلك القِلَّة القليلة التى ، وإن تكن قد شاركت العصر فى مشكلاته الفكرية وقضاياه ، إلا أنها قد شاركته كما يشاركه رجال الفكر من أصحاب الحضارة الغربية

نفسها ، فكأن هذه الجماعة « المستغرِبة » تنظر إلى الأمور بعين أوروبية أو أمريكية ، وكل ما لها من انتماء إلى الثقافة العربية الحديثة هو أنها تكتب ما تكتبه باللغة العربية ، ولعل أهم ما قامت به فى صنيعها ذاك ، هو أنها عرضت على الأمة العربية ثقافة الغرب ، لا عن طريق الترجمة المباشرة ، بل عن طريق تمثلها لتلك الثقافة ثم عرضها بأسلوب حى فيه روحها وشخصيتها ، فلئن كانت الفئة الكبيرة التى لاذت بالماضى بغير تعديل ، قد خرجت من ميدان المواجهة بالفرار ، فإن هذه الفئة الصغيرة التى دمجت نفسها فى حاضر الغرب كما هو ، قد خرجت هى الأخرى من ميدان المواجهة بالذوبان فى عالَم غير عالَمهم .

وتبقى بين أيدينا جماعة واحدة ، هى التى اضطلعت بالمواجهة الثقافية بكل ما فى هذه الكلمة من أبعاد ، وأعنى تلك الجماعة التى تستقطب جمهور المثقفين ، والتى جعلت همها أن تسوق ثقافة العصر فى مقولات الثقافة العربية كما عرفها التاريخ (١) .

إن نظرتنا لا تخالف نظرة المفكر الكبير من ناحية المبدأ ، ولكن قد تخالفه من ناحيتين :

١ - من ناحية التطبيق ، فقد يعتبر هو طه حسين فى جماعة الوسط ، ونحن نراه أقرب إلى طرف الاستغراب ، وإن كان فى أواخر حياته قد عدّل كثيراً من موقفه .

وقد يرى هو مثل رشيد رضا وحسن البنا ومحمد عبد الله دراز ، وأمثالهم من جماعة التراث ، مع أننا نسلكهم فى دعاة الوسطية .

٢ - من ناحية التعبير ، فقد اعتبر العصر هو « الصيد » الذى يُطلّب

---

(١) انظر : كتابه « ثقافتنا فى مواجهة العصر » ص ١٥ ، ١٦ ، طبع دار الشروق ، بيروت .

ويُنشد ، والتراث أو الماضى مجرد « قفص » أى وعاء مهمته الاحتواء والحجز ، فليس له أى قدرة على العطاء .

وأحسب أن الإنصاف يقتضى أن نعطى للتراث حقه ، كما فعلنا مع العصر .

على أن الدكتور - وجُلّ مَن نشأوا فى أحضان الثقافة الغربية - لم يميزوا بين الإسلام والتراث ، أى بين ما هو وحى إلَهى وما هو فكر إنسانى . فالأصل أن الإسلام بعقائده وشعائره وشرائعه وقيمه وأخلاقياته الثابتة بقرآنه وسُنَّته ، أعلى من التراث ، فهو الميزان الذى يحتكم إليه المختلفون ، والنور الذى يهتدى به المتحيرون .

* * *

● دعوى التصادم بين التفكير المستقبلى والتفكير الدينى :

ومن الكُتَّاب العلمانيين مَن يزعم أن التفكير الدينى بطبيعته يصطدم بالتفكير المستقبلى ، لما يحمل فى طياته من خطر يهدد قيماً كثيرة مرتكزة على أساس دينى : فحين يفكر الإنسان المعاصر فى المستقبل يتجه ذهنه فى الأغلب إلى تلك الكشوف العلمية والتكنولوچية التى يوسع بها نطاق معرفته بنفسه ، وبالعالَم ، وسيطرته عليهما ، وطابعها هو الاتجاه إلى تأكيد قدرة الإنسان وانتقاله التدريجى من مرحلة قبول الطبيعة على ما هى عليه ، إلى مرحلة تغييرها وتشكيلها وفقاً لأغراضه ، مما يؤدى به إلى منافسة الطبيعة ، وإحداث تحول جذرى فى مسارها .

مثل هذا الجهد العلمى والتكنولوچى يتخذ فى عالَمنا المعاصر - فى نظر هؤلاء العلمانيين - طابعاً يؤدّى إلى التصادم مع كثير من القيم الدينية .

فالعلم يسير الآن فى أول الطريق المؤدى إلى كشوف تقف على مدخل تلك المنطقة المحظورة التى كانت من قبل وقفاً على التفسير الدينى وحده . والتفكير المستقبلى فى العلم يؤدى مباشرة إلى توقع التحكم فى المخ البَشرى ومختلف

القدرات الإنسانية ، وإلى أطفال الأنابيب ، وتخليق الحياة الصناعية ، والتحكم فى جنس المواليد ، بل وفى صفاتهم الجسمية والنفسية والعقلية . هناك - إذن - قُوىً مخيفة توشك على الانطلاق من داخل مختبرات العلماء ، وهى قوىً لا تقتصر على التحكم فى الطبيعة المادية ، بل تسعى إلى التحكم فى الطبيعة البَشرية بدورها . وكل اتجاه إلى التفكير فى مستقبل هذه التطورات ، يثير بالضرورة حساسيات ومخاوف لا حصر لها . فالمستقبل يحمل فى طيَّاته احتمالات مزعجة ، تؤدى إلى زعزعة قيم ظلت مستقرة ومريحة زمناً طويلاً [١] .

هذا ما قاله أحدهم عن التفكير الدينى وموقفه من احتمالات المستقبل ، وهو تحامل واضح على التفكير الدينى وحده ، على حين نجد كثيرين من العلماء والأدباء والفلاسفة والمفكرين اليوم ، فى بلاد التقدم العلمى والتكنولوچى نفسها ، يتوجسون خيفة من هوس التكنولوچيا ، وجنون البيولوچيا ، وغلو الإنسان فى الدأب على تغيير خلق الله فى الكون ، وفطرة الله فى الإنسان . وهو ما يتنادى الكثيرون من العقلاء فى العالَم اليوم لمحاولة تفاديه ، قبل أن يقع ، والتخفيف من ويلات وشرور ما قد وقع بالفعل .

وقد أطلق بعض المهتمين صيحة : « يا سكان الأرض اتحدوا » [٢] أى لتفادى الخطر الواقع والمتوقع على هذا الكوكب وأحيائه .

ويؤكد الدكتور زكى نجيب محمود فى كتابه « تجديد الفكر العربى » أنه « مؤمن بأنه لا مندوحة لنا عن أن نزيل التعارض القائم اليوم فى أركان الدنيا جميعاً ، بين العلم الذى يتقدم بخطوات كخطوات الجبابرة ، وقيمة الإنسان التى تنهار بوثبات كوثبات الشياطين » [٣] .

---

(١) انظر : الصحوة فى ميزان العقل للدكتور فؤاد زكريا ص ٧٢

(٢) عنوان كتاب للأستاذ عصام الدين حواس .

(٣) تجديد الفكر العربى ص ٢٨٧ ، طبع دار الشروق ، بيروت .

والدكتور قسطنطين زريق - وهو رجل مسيحى مصنَّف فى القوميين التقدميين - يتجه هذا الاتجاه فى كتابه « نحن والمستقبل » فيتحدث عن « مشكلات التقدم » الذى أخذت البلاد المتقدمة تحس بما جرّ عليها من مشكلات متفاقمة ، وأضرار وأخطاء متضخمة ، وما يتعرضون له من مساوىء وشرور . وقام فريق من رجال الفكر وأرباب المسؤولية ينبهون ويحذِّرون ، ويدعون إلى السعى الجاد السريع لتدارك الخطر ، و« كبح انطلاق التقدم » كى لا يؤدى فى النهاية إلى تخلخل الحضارة الإنسانية . ونقل عن العالِم الفرنسى « رينيه ديمون » قوله : إن جميع الدلائل تدل على انهيار حضارتنا انهياراً تامّاً محتماً خلال القرن الحادى والعشرين إذا لم نصلح أساليبنا ! وأشار الدكتور زريق إلى ما قام به فريق « نادى روما » حول « المأزِق الذى تعانيه الإنسانية » نتيجة التقدم العلمى والتكنولوچى . وما أصدره الباحثون المتخصصون المكلّفون من تقرير يحمل نُذُراً تشاؤمية مرعبة ، أو على الأقل خليقة بإثارة القلق البليغ لما تكشف عنه من تحديات للبَشرية فى حاضرها ومستقبلها القريب .

ومن أهم الاستنتاجات العامة التلخيصية التى توصلوا إليها قولهم : « إذا ظلت الاتجاهات الحاضرة - فى نمو سكان العالَم ، والتصنيع ، والتلويث ، وإنتاج الغذاء ، واستنزاف الموارد - قائمة دون تعديل ، فإن الإنسانية ستبلغ حدود النمو على هذا الكوكب خلال المئة السنة المقبلة . وأرجح ما سيحصل هبوط فجائى وغير قابل للضبط فى السكان وفى القدرة الصناعية » [1] .

ومثل هذه التحذيرات كثير ، يظهر فى كتب وتقارير وبحوث شتَّى ، فى أكثر من بلد . وقد نشرت الصحف من عهد قريب خبراً عن وثيقة خطيرة وقّعها ١٥٠ عالِم ، منهم ٩٩ (تسعة وتسعون) من حملة جائزة « نوبل » ،

---

(١) انظر : نحن والمستقبل ص ٤٨ ، ٤٩ ، ١٥١ ، طبع دار العلوم للملايين ، بيروت ، طبعة أولى .

تحذر من خطر استخدام العلم والتكنولوچيا - دون ضوابط - على البيئة والإنسان [١] .

* * *

● التعلق بالنموذج النبوى والصحابى :

ويرى بعض دعاة العلمانية : أن فكرة الدين فى حدّ ذاتها تقف حائلاً دون التحليق فى المستقبل ، والتطلع إلى غد أفضل ، وتطوير الحياة إلى ما هو أحسن وأمثل . لأنها دائماً مشدودة إلى الوراء [٢] ، إلى عصر نزول الوحى واتصال السماء بالأرض ، وبروز الجيل الأول الذى تخرّج فى مدرسة النبوة ، وهو جيل الصحابة ، أفضل أجيال الأمة فى نظر المتدينين ، لأنه الجيل القرآنى الربّانى المحمدى ، الذى لم يُعرف لرسول من الرسل مثله ، إيماناً وعلماً وعملاً وبذلاً وجهاداً فى سبيل الله [٣] ، وهو الذى جاء فى مدحه الحديث : [خير الناس قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم] [٤] .

* *

---

(١) صحيفة « الشرق » القطرية - يناير سنة ١٩٩٣ م .

(٢) انظر : « الصحوة فى ميزان العقل » للدكتور فؤاد زكريا ، فصل « الأصالة والمعاصرة » ص ٩٢ وما بعدها .

(٣) انظر : فصل « جيل قرآنى فريد » من كتاب « معالم فى الطريق » للشهيد سيد قطب .

(٤) الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود ، وعمران بن حصين وغيرهما . انظر الحديثين برقم (١٦٤٦) ، و(١٦٤٧) من اللؤلؤ والمرجان .

● حاجة البَشر إلى نموذج :

وهنا ألفت النظر إلى نقطتين مهمتين :

الأولى : أن البَشر لا يتعلمون من المبادىء النظرية وحدها ، ولكنهم فى حاجة إلى نموذج بَشرى تتجسد فيه المبادىء النظرية ، والقيم الروحية ، والمُثُل الأخلاقية المجرَّدة ، يكون لهم أُسوة ، يقتدون بها فيهتدون .

فالبَشر ليسوا فلاسفة تجريديين ، يتبعون مبدءاً مثاليّاً يؤمنون به ، دون أن يروه محسّاً منظوراً ، أمامهم فى الحياة الواقعية .

لهذا اقتضت حكمة الله تعالى أن يضع أمام الناس نماذج بَشرية عملية ليقتدوا بها فيهتدوا ، تتمثّل فى رسل الله عليهم الصلاة والسلام . واقتضت حكمته - بالنسبة للرسالة الخاتمة - أن يضع أمامهم نموذجين حيين ملموسين : نموذجاً فرديّاً ، ونموذجاً جَماعيّاً .

أما النموذج الذى وضعه الله تعالى أمام الفرد ، ليتمثله ويتخذه إماماً وأُسوة ، فهو محمد رسول الله ﷺ ، الذى جعل الله فى سيرته مناراً لسلوك المؤمنين فى شتَّى جوانب الحياة .

يقول الله تعالى : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً** ﴾ (١) .

ومن فضل الله على عباده أن جعل فى سيرته الجامعة متّسعاً لكل أنواع الاقتداء فى مراحل الحياة المختلفة ، وجوانبها المتنوعة .

فالشاب والشيخ ، والعزب والمتزوج ، وذو الزوجة الواحدة وصاحب الأكثر من زوجة ، والأب والجد ، والحاكم والمحكوم ، والغنى والفقير ،

---

(١) الأحزاب : ٢١

والمسالم والمحارب ، والمنتصر والمنكسر ، كُلٌّ يجد فى حياته وسيرته مجالاً للقدوة [١] .

أما النموذج الآخر الذى جعله أُسوة للجماعة ، فهو جيل الصحابة فى عصر النبوة والراشدين .

فهذا جيل هيّأه الله لتلقّى رسالة الإسلام مباشرة على يدى صاحبها المبعوث بها ، فاستقبلها بعقله وقلبه وإرادته ، وعاش فيها ، وعاشت فيه ، وسرت فى كيانه العقلى والنفسى والعملى مسرى الدم فى العروق ، فحسُن فقهه لها ، وعمُق إيمانه بها ، وزكت نفسه بتعاليمها ، وصلح عمله فى رحابها ، وصدق جهاده لنصرتها .

فكان هذا الجيل أفقه الناس لروح الإسلام ، وأصدقهم عملاً به ، وأسرعهم للبذل فى سبيله ، وأكثرهم غيرة على حرماته ، وجهاداً لإعلاء كلمته .

وهو الذى حفظ لنا القرآن فى الصدور وفى السطور ، وروى لنا السنن أقوالاً وأفعالاً وتقريرات ، ونشر دين الله فى الآفاق ، بالأعمال قبل الأقوال ، وبالأخلاق قبل الأوراق . وربّى الشعوب على حبه والإيمان به ، والعمل بأحكامه . وهى مهمات عظمى ، انفرد بحملها دون سائر الأجيال ، وهى أعباء تنوء بها الجبال .

ولا غرو أن أثنى الله عليه فى كتابه [٢] ، وأثنى عليه الرسول فى أحاديثه ،

---

(١) انظر كتاب « الرسالة المحمدية » للعلامة سليمان الندوى بتقديم محبّ الدين الخطيب ، نشر المكتبة السَلَفية .

(٢) فى أواخر سورة الأنفال (من الآية : ٧٢ - ٧٥) ، وفى سورة التوبة (من الآية : ٨٨ - ٨٩) ، وآخر سورة الفتح (الآية : ٢٩) ، وسورة الحشر (الآية : ٧ - ٩) ، وغيرها من سور القرآن .

وأثنت عليه الأمة بعد ذلك فى مأثوراتها ، وسجّل التاريخ فضله بأحرف من نور .

ومن هنا لا نعجب إذا رنا المسلم ببصره إلى النموذج الأول ، المثل الأعلى للفرد ، وهو الرسول الأكرم الذى بعثه الله ليتمّم مكارم الأخلاق ، ووصفه بأنه : ﴿ عَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) ، ليتّخذ منه الأسوة والهداية فى حياته كلها . ورنت الجماعة ببصرها كذلك إلى الجيل الأول ، الجيل الربّانى ، القرآنى ، المحمّدى ، ليتّخذ منه أسوة فى حسن فهم الدين ، وصدق اليقين بما عند الله ، والتناصح فى الله ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر والمرحمة ، والتعاون على البر والتقوى ، والجهاد فى سبيل الله ، وتقديم مصلحة الإسلام على كل مصلحة شخصية .

والنقطة الثانية : أن وضع هذا النموذج أو ذاك أمام الفرد المسلم أو الجماعة المسلمة ، لا يعنى أن نهتدى به فى كل تفصيلات الحياة ، وجزئياتها المتغيرة ، وعلاقاتها المتطورة .

إنما الواجب والمشروع هو وضع النموذج نصب الأعين ، لتهتدى بهداه ، وتقتبس من سناه ، وتنهل من فضائله ، وتغترف من معين قيمه ومبادئه ، وتشرب روحه العالية المشرقة فيما تأخذ وما تدع .

وقد كان الصحابة عامة ، والراشدون خاصة ، أعظم الناس تأسيّاً واقتداءً برسول الله ﷺ ، وحرصاً على اتباع سُنّته ، واقتفاء سيرته ، ولم يمنعهم ذلك أن يبتكروا أشياء اقتضاها زمانهم وتطور حياتهم ، ومصلحة دينهم ودنياهم ، مثل جمع القرآن فى مصحف ، وجمع الصحابة على حرف واحد من أحرف القراءة السبعة ، وتدوين الدواوين ، وتمصير الأمصار .

ولنجد رجلاً مثل عمر بن الخطاب - الرجل الثانى فى الإسلام فى نظر

---

(١) القلم : ٤

جمهور الأمة - يستحدث أشياء لم تكن فى عهد النبوة ، ولا فى عهد أبى بكر ، وهى التى يعدونها « أوليات عمر » ، فهو أول مَن مصّر الأمصار ، ودوّن الدواوين ، وكتب الناس على قبائهم ، وفرض العطاء لكل مولود فى الإسلام ، وأول مَن استقضى القضاة فى الأمصار ، وأول مَن كتب التاريخ (١) .

بل نجد الصحابة خالفوا ما كان عليه الأمر فى حياة النبى ﷺ ، عملاً بما تقتضيه السياسة الشرعية الحكيمة ، من جلب المصالح ، ودرء المفاسد ، وتحقيق أكبر منفعة لأكبر عدد من الناس بقدر المستطاع .

ولهذا وقف عمر أرض السواد ولم يقسمها كما قسم النبى ﷺ خيبر ، والتقط عثمان ضوالّ الإبل ، ولم يكن يلتقطها النبى ﷺ وضمّن علىّ الصناع ، ولم يكونوا يضمّنون فى عهد النبوة .

وهذا لا يعتبر فى الحقيقة مخالفة ، بل فعل النبى عليه الصلاة والسلام ما هو أصلح للأمة فى زمنه ، وفعل خلفاؤه الراشدون ما هو أصلح للأمة فى زمنهم . كما قال ابن قدامة فى تعليل فعل عمر فى الأرض .

ولو كان الإسلام يكره الابتكار فى شئون الحياة ما رغّب الرسول الكريم فى ذلك بقوله : [مَن سنّ فى الإسلام سُنَّة حسنة فله أجرها ، وأجر مَن عمل بها بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شىء] (٢) .

وهذا هو المنهج الذى يريده الإسلام : الاتباع فى أمور الدين ، والابتداع فى أمور الدنيا . وكذلك كان أفضل أجيال المسلمين . فلمّا انحرف المسلمون

---

(١) انظر : سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى ، نشر دار إحياء علوم الدين بدمشق ص ٧٥ - ٧٩

(٢) رواه مسلم فى كتاب « الزكاة » من حديث جرير بن عبد الله برقم (١٠١٧) ، وكرره فى كتاب « العلم » فى صحيحه .

عن النهج الصحيح للإسلام ، عكسوا المشروع ، وقلبوا الموضوع ، فابتدعوا فى شؤون الدين وجمدوا فى أمور الدنيا والحياة .

والمسلمون فى خير قرون هذه الأمة ، وهى القرون الثلاثة الأولى - برغم يقينهم بفضل عصر النبوة والراشدين - لم يمنعهم ذلك أن يطوروا من علوم الدين ، ويخترعوا فى علوم الدنيا ، فنشأت مدارس الفقه والتفسير والكلام ، ومدارس اللغة والنحو ، ودوّنت علوم الدين واللغة .

ثم انفتح المسلمون على العالَم من حولهم من الهنود والفُرْس واليونان ، فترجموا الكثير من كتبهم ومعارفهم إلى العربية ، وعكفوا عليها درساً وبحثاً ، فشرحوا غامضها ، وكمّلوا ناقصها ، وصوّبوا خاطئها ، ورتّبوا مشوشها ، وهذّبوا وحوّروا ، وأضافوا وغيّروا ، وابتكروا علوماً جديدة ، مثل الجبر والمقابلة ، وتركوا بصماتهم على القديم ، فى الهندسة والطب ، والفيزياء والكيمياء ، وشتّى العلوم والرياضيات ، التى كانت تعتبر كلها شُعَباً من « الفلسفة » أو « الحكمة » .

بل اعتبروهم مبتكرى المنهج العلمى التجريبى ، الذى يفخر به الغرب ، وينسبه إلى « روجر بيكُن » ، وسمّيه « فرنسيس بيكُن » ، وهما إنما اقتبساه من الحضارة العربية الإسلامية ، كما اعترف بذلك كثير من المنصفين من مؤرخى العلم ، أمثال « بريفولت » ، و« چوستاف لوبون » ، و« جورج سارتون » (١) .

---

(١) بريفولت فى كتابه « بناء الإنسانية » ، ولوبون فى كتابه « حضارة العرب » ، وسارتون فى كتابه « تاريخ العلم » . وانظر : « مناهج البحث عند مفكرى الإسلام واكتشاف المنهج العلمى فى العالَم الإسلامى » للدكتور على سامى النشار ص ٣٨٢ - ٣٨٥ ط دار المعارف الثانية . و « شمس العرب تسطع على الغرب » .

المهم أنهم لم يعتبروا ذلك منافياً للاعتزاز بعصر « النموذج » الأول ، واتخاذه أسوة ، بل اعتبروا ذلك من استلهام روحه ، والسير على هداه .

* *

● **استنباطات مردودة :**

ولقد استنبط بعض الباحثين المعاصرين من حديث : [خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم] مقولة غريبة ، مضمونها : أن الإنسانية التى يحتضنها الإسلام تتقدم نحو ما هو أسوأ ، لا نحو ما هو أفضل ، وأن هذا التقدم إلى الأسوأ حتمىّ لا رادّ له ، وفقاً لهذا الحديث وأمثاله .

ولهذا يرجح أن هذه الأحاديث موضوعة مصنوعة ، إما لتبرير ما حدث بالفعل ، إذا فرضنا أن الواضعين هم مسلمون فعلاً ، وإما لتوجيه مسيرة الإسلام فى طريق اليأس ، إذا فرضنا أن الواضعين منافقون (١) .

والحق أن الحديث صحيح متفق على صحته بين علماء الإسلام ، لم يطعن عالِم سنّى ولا معتزلى - فيما أعلم - فى سنده أو متنه ، بل ذكر ابن حجر والسيوطى وغيرهما من أئمة النقل أنه من المتواتر (٢) .

فاعتبار هذا الحديث موضوعاً : اتهام للأمة كلها بالجهل والغباء ، وترويج الباطل ، واجتماعها على الضلالة طوال كل تلك العصور ، وهذا مدخل لنسف الدين كله .

أما ما فهمه الباحث الفاضل من الحديث ، وما رتبه عليه من نتائج ، فهو غير مسلّم له .

---

(١) انظر : أسس التقدم عند مفكرى الإسلام فى العالَم العربى الحديث ، للدكتور فهمى جدعان ص ٢١ وما بعدها ، طبع المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .

(٢) انظر : نظم المتناثر فى الحديث المتواتر للكتانى ، نشر دار الكتب العلمية ، بيروت ، حديث رقم (٢٤١) .

فالحديث إنما دلّ على فضل الجيل الذى تلقّى عن رسول الله ﷺ ، وتربّى فى حضانة النبوة ، وشاهد ما لم يشاهده غيره من آيات الله ، ومن هَدْى رسول الله ، وحمَّله القدر من المهمات ما لم يحمله غيره ، ثم الجيل الذى تتلمذ على هؤلاء الأصحاب ، واقتبس من مشكاتهم ، واقتفى آثارهم ، والجيل الثالث الذى سار على دربهم واتبعهم بإحسان . فرضى الله عنهم ورضوا عنه .

ولا يشك دارس منصف أن « الإشعاع الروحى » لهذه الأجيال القريبة من عهد النبوة الخاتمة ، كان من القوة والعمق والسعة ، بحيث لا يلحقه جيل آخر ، وهذا فى الجملة لا فى التفصيل ، وفى أمر الدين والتقوى لا فى أمر الحياة والعلم والعمران . فهذه قد تتفوق فيها الأجيال اللاحقة على الأجيال الأولى المفضّلة فى الالتزام الدينى .

وقد بشّر الرسول ﷺ أمته أنهم سيرثون ممالك كسرى وقيصر ، وسينفقون كنوزهما فى سبيل الله ، وأنهم سيملكون المشرق والمغرب يوماً ، وأن الرخاء سيبلغ مدىً لا يكاد يجد ذو المال يومها مَن يقبل منه الصدقة ، وأن الأمن سيستتبّ حتى إنّ المرأة تخرج وحدها من الحيرة بالعراق حتى تطوف بالبيت الحرام ، لا تخاف إلا الله ، وأن أرض العرب ستعود يوماً مروجاً وأنهاراً .

فهل يُعتبر هذا كله « تقدماً إلى الأسوأ » ؟!

إن أى قارىء غير متعصب ولا متعسف للتاريخ يعلم أن الخلفاء الراشدين بعد رسول الله ﷺ طوّروا كثيراً من أمور الحياة ، وأدخلوا عليها تحسينات وإضافات لم تكن فى عصر النبوة ، وهم الذين أُمِرنا أن نتبع سُنَّتهم ، ونعضّ عليها بالنواجذ ، فهى امتداد للسُّنَّة النبوية المطهّرة .

وبعد عصر الراشدين وجدنا المسلمين فى عهد الأمويين والعباسيين ، يبتكرون ويضيفون أشياء لم تكن فى العصر النبوى ولا العصر الراشدى ، أقرّهم عليها علماء الأمة ، وانعقد الإجماع على مشروعيتها .

ويكفى أن تم فيها استبحار علوم الدين واللغة ، وتدوينها وتأصيلها ، وظهور المدارس العلمية والفكرية فى شتَّى أنواع العلوم والآداب ، ثم اقتباس علوم الأمم الأخرى ، عن طريق الترجمة ، ثم تدارسها وإنضاجها وتهذيبها ، وإعمال يد التعديل والتحسين والتحوير فيها ، بالحذف والإضافة والتغيير ، والتقديم والتأخير ، حتى تنسجم مع المزاج العام للأمة ، وتتواءم مع دينها وقيمها وثقافتها ، وتجد لها مكاناً فى حياتها العقلية والوجدانية والاجتماعية . ثم ابتكار علوم جديدة كاملة ، لم يعرفها السابقون .

وفى هذا الإطار نشأت الحضارة الإسلامية الفارعة الرائعة ، ثابتة الأصول ، باسقة الفروع ، وارفة الظلال ، مباركة الثمار .

ولم يتوقف المسلمون عن إبداع هذه الحضارة فى مختلف مجالاتها ، وشتَّى فروعها ، بدعوى أن هناك أحاديث تغلّ أيديهم ، أو تقيّد أرجلهم ، أو تشل تفكيرهم ، محتّمة عليهم « التقدم إلى الأسوأ » !!

صحيح أن الأجيال المسلمة التى صنعت هذه الحضارة الشماء ، لم تكن فى شفافية جيل الصحابة وتلاميذهم من الناحية الإيمانية (الروحية) - وهو أمر اعترف به الجميع - ولكن هذا لم يقف حائلاً أمام تفوقهم العلمى ، وتقدمهم الحضارى ، وجهادهم الأخلاقى . بل وضعوا أخلاقيات ذلك الجيل المثالى نصب أعينهم ، باعتباره مثلاً إنسانياً أعلى ، وبذلك يجمعون بين الحسنتين أو يحاولون ذلك على الأقل : حسنة الإبداع الحضارى المادى ، وحسنة السمو الروحى ، والترقى الإيمانى والخُلُقى .

على أن هناك أحاديث أخرى تبين فضل الأجيال اللاحقة ، وتنوه بصبرها وثباتها فى عصور الفتن والأزمات التى يُمتحن فيها أهل الإيمان ، وحملة رسالة الإسلام ، ويغدو القابض على دينه فيها كالقابض على الجمر . حتى

ذكر الحديث أن للعامل فيها أجر خمسين ! [قيل : منا أو منهم يا رسول الله ؟ قال : بل منكم] (١) .

كما صحت أحاديث كثيرة تبشر بغد مشرق ، ومستقبل زاهر لدعوة الإسلام ، ومُلْك واسع لدولته .

وصح الحديث كذلك أن الله يبعث فى كل مائة سنة مَن يُجدِّد للأمة دينها . وبذلك يتجدد أملها ، ويقوى رجاؤها ، فى صلاح الحال إذا فسد ، وقوة الدين إذا ضعف ، واستقامة الأمر إذا اعوج .

* *

● **استمرار الخير فى سائر أجيال الأمة :**

وإيمان المسلم بفضل القرن الأول أو القرون الأولى لا يعنى أن باب الله قد أغلق أمام سائر القرون إلى يوم القيامة ، وأن الأجيال القادمة محرومة من استباق الخيرات ، فقد حازتها تلك القرون ، ولم يعد أمامها إلا الفتات إن بقى الفتات .

بل الحق الذى لا ريب أن باب الله تعالى مفتوح للجميع إلى أن تقوم الساعة ، واستباق الخيرات مأمور به لجميع الأمة فى كل العصور : ﴿ **فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ ، إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً** ﴾ (٢) . وكم ترك الأول للآخر ، وكم فى الإمكان أبدع مما كان . وفى الحديث الشريف : [مثل أمتى كالمطر ، لا يُدرَى أوله خير أم آخره] (٣) .

---

(١) الحديث رواه أبو داود فى سننه كتاب « الملاحم » برقم (٤٣٤١) ، والترمذى فى التفسير (٣٠٦٠) ، وقال : حسن غريب ، وابن ماجه فى الفتن (٤٠١٤) كلهم عن أبى ثعلبة الخشنى .

(٢) المائدة : ٤٨

(٣) رواه الترمذى عن أنس فى أبواب الأمثال برقم (٢٨٧٣) ، وقال : حسن غريب ، ورواه أحمد والبزار والطبرانى عن عمار بن ياسر ، قال الهيثمى : ورجال =

يقرر الشرَّاح هنا : أنه كما لا يُحكم بوجود النفع فى بعض الأمطار دون بعض ، فكذلك لا يُحكم بوجود الخيرية فى بعض أجيال الأمة أو أفرادها دون بعض من جميع الوجوه ، وفى هذا إيماء إلى أن باب الله مفتوح ، وطلب الفيض من جنابه مفسوح . فكل طبقة مِن طبقات الأمة لها خاصيّة وفضيلة توجب خيريتها ، كما أن كل نوبة من نوبات المطر لها فائدتها فى النشوء والنماء لا يمكن إنكارها . فإن الأوَّلين آمنوا بما شاهدوا من المعجزات ، وتلقوا دعوة الرسول بالإجابة والإيمان ، والآخرين آمنوا بالغيب ، لما تواتر عندهم من الآيات ، واتبعوا مَن قبلهم بالإحسان . وكما أن المتقدمين اجتهدوا فى التأسيس والتمهيد ، فالمتأخرون بذلوا وسعهم فى التقرير والتأكيد ، فكلٌ ذنبُهم مغفور ، وسعيهم مشكور ، وأجرهم موفور .

قالوا : والمراد هنا وصف الأمة قاطبة - سابقها ولاحقها ، أولها وآخرها - بالخير ، وأنها ملتحمة بعضها ببعض ، مرصوصة كالبنيان ، مفرغة كالحلقة التى لا يُدرى أين طرفاها [1] .

والمسلمون فى كل مكان وزمان يردّدون هذا القول بوصفه حديثاً نبويّاً : « الخير فىّ وفى أمتى إلى يوم القيامة » ، ومعناه صحيح ، وإن لم يرد بهذا اللفظ .

فقد صحَّت جملة أحاديث عن عدد من الصحابة تؤكد أن [لا تزال طائفة

= البزار رجال الصحيح ، غير الحسن بن قزعة ، وعبيد بن سليمان الأغر وهما ثقتان ، وفى عبيد كلام لا يضر : (٦٨/١٠) ، ورواه البزار والطبرانى فى الأوسط عن عمران ابن حصين ، وقال البزار : لا يروى بإسناد أحسن من هذا : (٦٨/١٠) ، ورواه ابن حبان فى صحيحه عن عمار (الإحسان / ٧٢٢٦) .

(١) انظر : مرقاة المفاتيح ، شرح مشكاة المصابيح للعلامة على القارى : ٦٥٨/٥ ، وقد نقلناه بتصرف .

من هذه الأمة قائمة على الحق حتى يأتى أمر الله] [1] ، وهو ما يتفق مع منطوق القرآن الكريم : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [2] .

كما صحَّت أحاديث تبشر بمستقبل مشرق للإسلام ، تعلو فيه كلمته وتنتشر دعوته ، وتتسع دولته [3] .

* *

● **سنن وقواعد مطردة :**

ولقد وضح لدى الأجيال المسلمة طوال القرون : أن ثمة مبادىء راسخة ، وقواعد ثابتة ، وسنناً مطردة ، من محكمات القرآن والسُّنَّة ، يحتكم إليها الجميع ، منها :

١ - أن لكل عمل ثمرة ، ولكل جهد جزاء ، فى الدنيا قبل الآخرة . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ [4] ، ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ المُصْلِحِينَ ﴾ [5] .

٢ - أن الجهاد فى الله ، سواء أكان جهاداً روحيّاً أم ماديّاً ، لا يهدره الله أبداً : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ ﴾ [6] .

٣ - أن مَن نَصَرَ اللهَ نصره الله ، ومكّن له فى الأرض ، وإنما ينصر الله بالإيمان وعمل الصالحات . والصالحات : كل ما تصلح به الحياة روحيّاً

---

(١) صح من حديث معاوية والمغيرة بن شعبة ، وثوبان وعقبة بن عامر وجابر وعمر وأبى هريرة وعمران بن حصين وقرة بن إياس ، رضى الله عنهم . انظر : صحيح الجامع الصغير . الأحاديث من (٧٢٨٧) إلى (٧٢٩٦) . (٢) الأعراف : ١٨١

(٣) انظر فى ذلك : الأحاديث الصحيحة للألبانى - الجزء الأول - الأحاديث رقم (١ - ٦) ، نشر المكتب الإسلامى ، بيروت . (٤) الكهف : ٣٠

(٥) الأعراف : ١٧٠ (٦) العنكبوت : ٦٩

وماديّاً، وما يصلح به الإنسان فرديّاً وجَماعيّاً . يقول تعالى : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ ، إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ (١) ، ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ، يَعْبُدُونَنِى لاَ يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً ﴾ (٢) .

* * *

٤ - العناية بحقوق الإنسان :

ومن سمات عصرنا البارزة : أنه عصر حقوق الإنسان ، فلا معاصرة لنا إذا لم نعترف بهذه الحقوق فى دساتيرنا ، ونرعها فى مؤسساتنا ، ونزرع احترامها فى عقول أبنائنا ، وضمائر شعوبنا وحُكّامنا . وبخاصة حقوق المستضعفين والمسحوقين .

حقوق الإنسان الفرد لدى المجتمع .

حقوق الشعوب لدى الحُكّام .

حقوق الفقراء لدى الأغنياء .

حقوق الأُجراء لدى الملاّك .

حقوق العمال لدى أرباب العمل .

حقوق النساء لدى الرجال .

حقوق الأطفال لدى الآباء .

إلى غير ذلك من الحقوق ، التى تحفظ للإنسان آدميته ، وتصون حُرمته

---

(١) الحج : ٤٠ - ٤١ (٢) النور : ٥٥

وكرامته ، وتؤمنه على ممتلكاته وخصوصياته ، وتحميه من مخالب الأقوياء أن تفترسه ، ومن أقدامهم الغليظة أن تدوسه .

فهل تضيق أصالتنا الإسلامية والعربية ذرعاً بهذه الحقوق ؟ أم ترحب بها وتنشرح بها صدراً ؟

الواقع أن هنا بحوثاً ودراسات جادة أثبتت - بمنهج علمى صحيح - أن هذه الحقوق - فى جملتها - ليست من مستحدثات العصر ، ولا من مبتكرات الغرب ، وأن الإسلام سبق بإقرارها ، بل بالدعوة إليها والمحافظة عليها ، واعتبار الفرد والمجتمع والدولة حُرّاساً على رعايتها ، بوصفها واجبات شرعية ، يُثاب مَن فعلها ، ويُعاقَب مَن تركها .

لا أملك فى دراستى هذه أن أتحدث عن هذه الحقوق وموقف الإسلام منها ، بل أحيل على بعض الكتب التى صدرت فى هذه القضية ، مثل :

حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والفكر القانونى الغربى للدكتور محمد فتحى عثمان .

حقوق الإنسان بين الإسلام وإعلان الأمم المتحدة للشيخ محمد الغزالى .

حقوق الإنسان فى الإسلام للدكتور على عبد الواحد وافى .

الإسلام وحقوق الإنسان للدكتور القطب محمد طبلية .

الإسلام وحقوق الإنسان للدكتور محمد عمارة .

وأكتفى هنا بعرض خلاصة مما انتهى إليه بحث الدكتور فتحى عثمان ، فى كتابه الموثق بالأدلة الشرعية والتاريخية من مصادرها الأصيلة . وفيها بيَّن أن تقرير حقوق الإنسان فى الإسلام ، استوعب الاتجاهات الوضعية كلها قديماً وحديثاً وتفوَّق عليها ، مؤكداً ما يلى :

(أ) أن تقرير حقوق الإنسان فى الإسلام قد شمل الحقوق الشخصية الذاتية

والفكرية والسياسية والقانونية والاجتماعية والاقتصادية ، وأكد الحريات العامة المتنوعة والمساواة .

(ب) وقد شمل تقرير حقوق الإنسان فى الإسلام : الرجال والنساء اللائى هن [شقائق الرجال] كما ورد فى الحديث ، والأطفال وهم « الذُرِّية الضعاف » الذين تمتعوا بالرعاية الشرعية من جانب كل المؤسسات القائمة فى المجتمع الإسلامى : الأسرة والجماعة والدولة .

(جـ) كما شمل تقرير حقوق الإنسان فى الإسلام : المسلمين وغير المسلمين فى داخل دولة الإسلام وخارجها ، لأن « البر » فى الإسلام إنسانى عالَمى : ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (١) .

(د) وحقوق الإنسان الشاملة فى الإسلام هى فى ضمان الفرد والجماعة والدولة على السواء ، لأن « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » هو واجب هؤلاء جميعاً : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ (٢) .

(هـ) ومما يتجلى فيه تفوق حكم الله على وضع البَشر بالنسبة لتقرير حقوق الإنسان وحرياته العامة : أن تقرير الحقوق فى الإسلام يستند إلى « عقيدة الإيمان » وهى فى عمقها وشمولها ودوامها لا تقارن بفكرة « القانون الطبيعى » أو « العدالة » أو « العقد الاجتماعى » أو « المذهب الفردى » . . إلخ . فـ « الله » مصدر تقرير الحقوق فى دين الإسلام حقيقة ثابتة ، لا مجرد افتراض غامض ، والعقيدة فى الله ترتكز إلى أصولها فى الفكر والنفس ، ولها آثارها الواسعة الشاملة المستمرة فى سلوك الفرد والجماعة والدولة .

---

(١) الممتحنة : ٨ (٢) التوبة : ٧١

(و) إن استناد تقرير الحق إلى الله عَزَّ وجَلَّ وشريعته يؤدى إلى اقتران الحق بالواجب ، واقتران حق الفرد بحق الجماعة ، واقتران الحقوق الفكرية والسياسية بالحقوق الاجتماعية والاقتصادية . فكل ما هو حق للفرد هو واجب على غيره : سواء أكان الغير فرداً آخر أم الجماعة أم الدولة ، وهكذا لا مجال فى المجتمع الإسلامى للأنانية والفردية ، ففى الحديث : [لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه] (١) ، [لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض] (٢) ، والقرآن يعبِّر فى جلاء أن الأخوة ثمرة الإيمان الصحيح : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ (٣) .

(ز) بل إن تقرير حقوق الإنسان من قِبَل خالق الإنسان عَزَّ وجَلَّ قد جعل إحقاق الحق واجباً على صاحب الحق نفسه ، كما هو واجب على الذى عليه الحق ، فعلى صاحب الحق أن يطالب به ويحرص عليه ، ويناضل لأجله إن كان المانع مماطلاً أو باغياً أو غاصباً . ففى الحديث : [مَن قُتِل دون دمه فهو شهيد ، ومَن قُتِل دون عِرضه فهو شهيد ، ومَن قُتِل دون ماله فهو شهيد(٤)]، والمؤمنون أفراداً وجماعة ودولة فى أى مكان مأمورون بمظاهرة صاحب الحق فى طلبه والنضال لأجله : ﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ ﴾ (٥) . والمؤمن مأمور ألا يفرط فى حقوقه ، وبخاصة ما يمس إنسانيته وفكره واعتقاده ، حتى ولو اضطر إلى ترك الأرض التى عاش فيها وارتبط بها وألفها .

وهكذا تكون الهجرة أو « الالتجاء » بالاصطلاح القانونى المعاصر واجباً على المضطهد وليست حقاً فحسب . كما أن من واجبه النضال والجهاد حيثما كان .

(ح) والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى شريعة الإسلام يعنى إحقاق

---

(١) متفق عليه عن أنس - اللؤلؤ والمرجان (٢٨) .

(٢) متفق عليه عن جرير وابن عمر - نفسه (٤٤ و ٤٥) .

(٣) الحجرات : ١٠

(٤) رواه أبو داود (٤٧٧٢) والترمذى (١٤٢١) وقال : حسن صحيح ، والنسائى (٤٠٤٩) وابن ماجه (٢٥٨٠) كلهم عن سعيد بن زيد .

(٥) الحجرات : ٩

الحق ومقاومة البغى ، وهو التزام فذٌّ يفرضه الإسلام على الفرد والجماعة والدولة ، وهو واجب دينى شرعى يرتكز إلى العقيدة ، ويتغلغل إلى أعماق ضمير المؤمن ، وهو مقرون بالإيمان نفسه فى عدد من آيات القرآن .

(ط) وإن الإسلام ليرتضى فى مجال الاجتهاد والسياسة الشرعية كل ما يتوصل إليه التفكير والتجربة من إجراءات محكمة مخلصة ناجعة ، لضمان حقوق الإنسان ومنع المساس بها والاعتداء عليها . وفى حدود ما ورد من نصوص القرآن والسُّنَّة وما وقع فى تاريخ الإسلام ، يمكن القول بوجود الضمانات التالية :

(ى) واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الملقى على عاتق الفرد والجماعة والدولة فى الإسلام ، والذى يعنى حراسة هؤلاء جميعاً للحق فى مختلف صوره ومدافعتهم للبغى فى مختلف صوره . ومن الوسائل التى عرفها تاريخ الإسلام فى هذا الصدد وظيفة المحتسب بالنسبة للحكومة ، ودعوى الحسبة بالنسبة للأفراد ، ويمكن إدخال مراقبة رعاية حقوق الإنسان فى نطاق كليهما .

(ك) كذلك كان من اختصاص والى المظالم - وهو من اختصاص القاضى قبل ذلك وعندما لا يوجد مثل هذا المنصب - النظر فى تعدى الولاة على الرعية وأخذهم بالعسف فى السيرة . فهذا من لوازم النظر فى المظالم الذى لا تقف على ظلامة متظلم ، فيكون لسيرة الولاة متصفحاً ، وعن أحوالهم مستكشفاً ، ليقويهم إن أنصفوا ، ويكفّهم إن عسفوا ، ويستبدل بهم إن لم ينصفوا .

(ل) ولا مانع أن يقوم قضاء داخل الدولة الإسلامية على أعلى مستوًى لحماية حقوق الإنسان : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (١) .

---

(١) النساء : ٥٩

(م) ومن الإجراءات المعروفة فى شريعة الإسلام وتاريخه « التحكيم » لمحاولة الإصلاح بين طرفى النزاع ، سواء أكان ذلك على المستوى الداخلى أو العالَمى . والنص صريح فى مجال الأسرة ولا مانع من تعديته إلى الجماعة داخل الدولة والجماعة الإنسانية الدولية ، يقول تعالى : ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا** ﴾ (١) .

(ن) والإسلام يشرع الجهاد لحماية حقوق الإنسان ، ومنع استضعافه ، والبغى على ذاته وحقوقه : ﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا** ﴾ (٢) .

(س) وحق الهجرة والالتجاء مكفول للفرد الفرار بنفسه وعقيدته وفكره من الاضطهاد ، وكل ما يمكن أن يستحدث من وسائل لحماية الحق وكفالة العدل ومقاومة البغى فإن الإسلام يرتضيها ويحتويها (٣) .

هذه هى حقوق الإنسان فى الإسلام ، واضحة بيِّنة موثقة من أصوله ومصادره .

ولكن الذى نؤكده هنا : أن الإسلام يمتاز عن الفكر الغربى بما قرره من التوازن بين الحقوق والواجبات . فالإنسان فى حضارة الغرب يركض أبداً وراء ما هو له ، ولا يهتم كثيراً بما هو عليه . والإنسان فى الإسلام مشدود إلى ما يجب عليه أولاً ، الإنسان فى نظر الغرب مطالبٌ سائل ، وفى نظر الإسلام مطالَب مسئول . وفرق كبير بين الموقفين ، فرق بين مَن يقول :

---

(١) النساء : ٣٥ (٢) النساء : ٧٥

(٣) انظر : حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والفكر القانونى الغربى للدكتور فتحى عثمان ص ١٧٤ - ١٩٢ ، طبع دار الشروق ، القاهرة .

ماذا لى ؟ ومَن يقول : ماذا علىّ ؟ فالأول يدور حول حاجته ، والآخر يدور حول قيمة أخلاقية . ومن خلال أداء الواجبات تُرعى الحقوق ؛ إذ ما من حق لفرد أو جماعة إلا كان هو واجباً على غيره . فحقوق المحكومين إنما هى واجبات على الحُكَّام ، وحقوق المستأجرين إنما هى واجبات على المالكين . وحقوق الأولاد إنما هى واجبات على الوالدين ، وهكذا .

* * *

obeikandl.com